مجلة جامعة البعث

سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة دورية

المجلد 45 . العدد 4

1444 هـ - 2023 م

الأستاذ الدكتور عبد الباسط الخطيب

رئيس جامعة البعث

المدير المسؤول عن المجلة

أ. د. محمود حديد	**رئيس هيئة التحرير**
أ. د. هايل الطالب	**رئيس التحرير**

مديرة مكتب مجلة جامعة البعث

بشرى مصطفى

د. محمد هلال	**عضو هيئة التحرير**
د. فهد شريباتي	**عضو هيئة التحرير**
د. معن سلامة	**عضو هيئة التحرير**
د. جمال العلي	**عضو هيئة التحرير**
د. عباد كاسوحة	**عضو هيئة التحرير**
د. محمود عامر	**عضو هيئة التحرير**
د. أحمد الحسن	**عضو هيئة التحرير**
د. سونيا عطية	**عضو هيئة التحرير**
د. ريم ديب	**عضو هيئة التحرير**
د. حسن مشرقي	**عضو هيئة التحرير**
د. هيثم حسن	**عضو هيئة التحرير**
د. نزار عبشي	**عضو هيئة التحرير**

تهدف المجلة إلى نشر البحوث العلمية الأصيلة، ويمكن للراغبين في طلبها الاتصال بالعنوان التالي:

رئيس تحرير مجلة جامعة البعث

سورية . حمص . جامعة البعث . الإدارة المركزية . ص . ب (77)

. هاتف / فاكس : 2138071 31 963 ++

. موقع الإنترنت : www.albaath-univ.edu.sy

. البريد الالكتروني : magazine@ albaath-univ.edu.sy

ISSN: 1022-467X

شروط النشر في مجلة جامعة البعث

الأوراق المطلوبة:

- 2 نسخة ورقية من البحث بدون اسم الباحث / الكلية / الجامعة) + CD / word من البحث منسق حسب شروط المجلة.
- طابع بحث علمي + طابع نقابة معلمين.
- **اذا كان الباحث طالب دراسات عليا:**

يجب إرفاق قرار تسجيل الدكتوراه / ماجستير + كتاب من الدكتور المشرف بموافقته على النشر في المجلة.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية:**

يجب إرفاق قرار المجلس المختص بإنجاز البحث أو قرار قسم بالموافقة على اعتماده حسب الحال.

- **اذا كان الباحث عضو هيئة تدريسية من خارج جامعة البعث :**

يجب إحضار كتاب من عمادة كليته تثبت أنه عضو بالهيئة التدريسية و على رأس عمله حتى تاريخه.

- **اذا كان الباحث عضواً في الهيئة الفنية :**

يجب إرفاق كتاب يحدد فيه مكان و زمان إجراء البحث ، وما يثبت صفته وأنه على رأس عمله.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (العلوم الطبية والهندسية والأساسية والتطبيقية):**

عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1- مقدمة

2- هدف البحث

3- مواد وطرق البحث

4- النتائج ومناقشتها .

5- الاستنتاجات والتوصيات .

6- المراجع.

- **يتم ترتيب البحث على النحو الآتي بالنسبة لكليات (الآداب – الاقتصاد– التربية – الحقوق – السياحة – التربية الموسيقية وجميع العلوم الإنسانية):**
- عنوان البحث . . ملخص عربي و إنكليزي (كلمات مفتاحية في نهاية الملخصين).

1. مقدمة.
2. مشكلة البحث وأهميته والجديد فيه.
3. أهداف البحث و أسئلته.
4. فرضيات البحث و حدوده.
5. مصطلحات البحث و تعريفاته الإجرائية.
6. الإطار النظري و الدراسات السابقة.
7. منهج البحث و إجراءاته.
8. عرض البحث و المناقشة والتحليل
9. نتائج البحث.
10. مقترحات البحث إن وجدت.
11. قائمة المصادر والمراجع.

7- يجب اعتماد الإعدادات الآتية أثناء طباعة البحث على الكمبيوتر:

أ- قياس الورق 17.5×25 B5.

ب- هوامش الصفحة: أعلى 2.54- أسفل 2.54 – يمين 2.5- يسار 2.5 سم

ت- رأس الصفحة 1.6 / تذييل الصفحة 1.8

ث- نوع الخط وقياسه: العنوان . Monotype Koufi قياس 20

. كتابة النص Simplified Arabic قياس 13 عادي . العناوين الفرعية Simplified Arabic قياس 13 عريض.

ج . يجب مراعاة أن يكون قياس الصور والجداول المدرجة في البحث لا يتعدى 12سم.

8- في حال عدم إجراء البحث وفقاً لما ورد أعلاه من إشارات فإن البحث سيهمل ولا يرد البحث إلى صاحبه.

9- تقديم أي بحث للنشر في المجلة يدل ضمناً على عدم نشره في أي مكان آخر، وفي حال قبول البحث للنشر في مجلة جامعة البعث يجب عدم نشره في أي مجلة أخرى.

10- الناشر غير مسؤول عن محتوى ما ينشر من مادة الموضوعات التي تنشر في المجلة

11- تكتب المراجع ضمن النص على الشكل التالي: [1] ثم رقم الصفحة ويفضل استخدام التهميش الإلكتروني المعمول به في نظام وورد WORD حيث يشير الرقم إلى رقم المرجع الوارد في قائمة المراجع.

تكتب جميع المراجع باللغة الانكليزية (الأحرف الرومانية) وفق التالي:

آ . إذا كان المرجع أجنبياً:

الكنية بالأحرف الكبيرة . الحرف الأول من الاسم تتبعه فاصلة . سنة النشر . وتتبعها معترضة (–) عنوان الكتاب ويوضع تحته خط وتتبعه نقطة . دار النشر وتتبعها فاصلة . الطبعة (ثانية . ثالثة) . بلد النشر وتتبعها فاصلة . عدد صفحات الكتاب وتتبعها نقطة.

وفيما يلي مثال على ذلك:

–MAVRODEANUS, R1986– **Flame Spectroscopy**. Willy, New York, 373p.

ب . إذا كان المرجع بحثاً منشوراً في مجلة باللغة الأجنبية:

. بعد الكنية والاسم وسنة النشر يضاف عنوان البحث وتتبعه فاصلة، اسم المجلد ويوضع تحته خط وتتبعه فاصلة . المجلد والعدد (كتابة مختزلة) وبعدها فاصلة . أرقام الصفحات الخاصة بالبحث ضمن المجلة.

مثال على ذلك:

BUSSE,E 1980 Organic Brain Diseases **Clinical Psychiatry News** , Vol. 4. 20 – 60

ج. إذا كان المرجع أو البحث منشوراً باللغة العربية فيجب تحويله إلى اللغة الإنكليزية و التقيد

بالبنود (أ و ب) ويكتب في نهاية المراجع العربية: (المراجع In Arabic)

رسوم النشر في مجلة جامعة البعث

1. **دفع رسم نشر (40000) ل.س أربعون ألف ليرة سورية عن كل بحث لكل باحث يريد نشره في مجلة جامعة البعث.**
2. **دفع رسم نشر (100000) ل.س مئة الف ليرة سورية عن كل بحث للباحثين من الجامعة الخاصة والافتراضية .**
3. **دفع رسم نشر (200) مئتا دولار أمريكي فقط للباحثين من خارج القطر العربي السوري .**
4. **دفع مبلغ (6000) ل.س ستة آلاف ليرة سورية رسم موافقة على النشر من كافة الباحثين.**

المحتوى

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحة
صور الملكة زنوبيا في "تاريخ أوغسطين"	لارا سمعان د. محمد العلي	40-11
بدايات النشاط البحري للأسطول العربي الإسلامي	علي طالب د. بسام العلوش	76-41
السخاوي في ميزان التدوين التاريخي	د. نزار سلطان	104-77
أثر التَّصوُّف في المغرب العربيّ الإسلامي خلال القرنين(5-6هـ / 11-12م)	د. نزار سلطان	142-105

صور الملكة زنوبيا في "تاريخ أوغسطين"

طالبة الماجستير: لارا سمعان كلية الآداب ـ جامعة البعث

إشراف: د. محمد العلي

مُلخَّص

يتناول هذه البحث سيرة الملكة زنوبيا في "تاريخ أوغسطين" وهذا العمل يظهر كيف قدم الرومان الملكة زنوبيا وفقاً لأهدافهم مما أدى إلى قراءات وإسقاطات مختلفة قام بها المؤلف لتناسب متطلبات زمنه أو للترويج لأفكاره. تُظهر هذه الصور المتعددة لسيرة الملكة زنوبيا، داخل نفس الكتاب، كيف يتلاعب المنتصر بالتاريخ. يهدف هذا البحث إلى توضيح هذه الإسقاطات المتعددة من خلال استخدام مفاهيم "الخطاب" "إرادة القوة" "والاستشراق". وفي هذا المجال نجد أن نظرية فوكو للخطاب تشرح كيف استمرت سيرة زنوبيا في التغيير بطريقة شكلها المجتمع وقيوده. في نظريته حول تطور الخطاب يقدم فوكو العديد من الطرق التي يقيد بها المجتمع تطور الأفكار الجديدة وكيف يتم الحفاظ على هذه الأفكار مقيدة بالأفكار القديمة.

"إرادة القوة" هو مفهوم طوره الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه تدعي أن كل ما هو موجود يمارس القوة ضد بعضه البعض. يمارس كل مؤلف إرادته في السلطة من خلال كتابة سيرة زنوبيا وإبراز جوانب معينة من حياتها أو من خلال اللغة التي يستخدمونها أثناء وصف الأحداث أو الأفعال في حياتها.

سيساعد مفهوم "الاستشراق" لإدوارد سعيد في فهم طريقة تصوير زنوبيا في الأعمال المدروسة. تعتبر زنوبيا ، وهي ملكة شرقية، تهديدًا ملموسًا للإمبراطورية الرومانية. توضح أوصاف زنوبيا مدى تأثر الأدب الغربي بشدة بالتقسيم التعسفي بين الغرب والشرق وصولاً إلى زمن الرومان.

الكلمات المفتاحية: الملكة زنوبيا، تاريخ أوغسطين، نيتشه، فوكو، سعيد، الغرب، الشرق، إرادة القوة، الخطاب، الإستشراق، الأنوثة، الرجولة.

The Projections of Queen Zenobia in the Historia Augusta

Submitted by: Lara Samaan

Supervised by: Mohamed Al-Ali

Abstract

This study examines the biography of queen Zenobia in *The Historia Augusta* . This work shows how Queen Zenobia was presented by the Romans in accordance with their aims. This leads to different readings and emphases done by the author of this work to fit the requirement of his or her time or to promote such ideas. These multiple projections of the biography of Queen Zenobia, within the same book, show how history is manipulated by the victor.

The study aims at clarifying these multiple projections by the use of concepts of discourse, the will to power, and Orientalism. Foucault's theory of discourse will explain how the biography of Zenobia kept on altering in a way that was shaped by society and its restrictions. In his theory about the development of discourse, Foucault presents many ways in which society restricts the development of new ideas and how these ideas are kept bound by the old ones.

The will to power is a concept developed by the German philosopher Friedrich Nietzsche. It claims that things which exists is exerting force against each other. Each author exercises their will to power by writing the biography of Zenobia and highlighting certain aspects of her life or by the language they use while describing events or actions in her life.

The concept of Orientalism by Edward Said will help in understanding the way Zenobia is portrayed in *The Historia Augusta*. Zenobia, an oriental queen, was considered a tangible threat to the Roman Empire. The descriptions of Zenobia show how heavily influenced Western literature was by the arbitrary division between the West and the East back in the times of the Romans.

Keywords: Queen Zenobia, *The Historia Augusta*, Nietzsche, Foucault, Said, West, East, power, discourse, Orientalism, femininity, masculinity.

The Scriptores of The Historia Augusta or the *Historia Augusta*–possibly published in the late 4th century- deals with the biographies of Roman emperors, heirs, and usurpers from the year 117 till the year 284. *The Historia Augusta* not only describes what happened in that period but also gives insight into how the Romans viewed the people of the East and their views on women. The Roman age – like the Hellenistic age- was filled with a proliferation of fabrication like imagined biographies, inserting letters by statesmen and sages, writing exotic and Utopian romances, and erudite mystifications *(*Syme, *Emperors and Biographies: Studies in the Historia Augusta* 246). The author of the *Historia Augusta* does not differ from the writers of his age. His work "indulges in fabrication and scurrilous gossip, but it also uses third-century sources" (Andrade 193). The author tries to give legitimacy to his work through different techniques. He refers to other works and authors, mentions people considered reliable and famous to his readers, and describes past events through the lens of his time.

The *Historia Augusta* is the only historical book that extensively tells about Zenobia, and many contemporary characteristics attributed to her come from this depiction. In her book about Zenobia, Pat Southern states that "[h]istory is written by the victors, who combine righteous self-justification with a celebration of prowess, obliterating in the process the motives, aims, and ambitions of their enemies." Southern adds that "[t]he Romans particularly disliked clever, martial women" (Southern 1), which explains how The *Historia Augusta* presents Zenobia. The *Historia Augusta* views and presents the Palmyrene queen as a strange anomaly due to how Romans viewed women. The Romans viewed women as weak creatures who could not manage a house without male supervision. However, the Palmyrenes had an opposing view of women, for the Palmyrenes Women were capable of governance (Andrade 193). The archeological discoveries gave a lot of insight

into what took place during that period, yet the information provided by the *Historia Augusta* and other Roman sources is still more commonly known to people who are not specialists in history or archeology.

Zenobia's biography in the *Historia Augusta* can be considered discourse on the association of power, gender, and ethnicity (Jones 221). It reflects as a conflict between the Romans and their colonies, the conflict between the West and the East, and between men and women. The third volume of the *Historia Augusta* contains the story of Zenobia, and in this volume, she is introduced in multiple chapters. She is introduced first in the chapter titled "The Two Gallieni," secondly in the chapter titled "The Thirty Pretenders" or "The Thirty Tyrants," and finally in the chapter titled "The Deified Aurelian." The author presents different versions of the Palmyrene queen depending on his aim and what he tries to deliver to the reader.

Thus, we cannot talk about Zenobia in The Historia *Augusta* without considering how the *Historia Augusta* presents Emperor Gallienus and Emperor Aurelian. The author first mentions Zenobia in the biography of Gallienus in the chapter titled "The Two Gallieni." The author in this chapter explicitly shows his animosity toward emperor Gallienus. The author's animosity to the emperor can be attributed to trying to magnify the role of the emperor Claudius II who succeeded Gallienus and to rule out Claudius' role in Gallienus' murder (Syvanne 26). The demonization of Emperor Gallienus by the author does not stop at the mere description of how unfit the emperor was. The author goes as far as employing and creating biographies to help with this aim. He uses explicit and implicit descriptions to cement the notion of how unfit and unsuitable he was as an emperor. Syme argues that the author of the *Historia Augusta* had written this work "with an express design of

political and religious propaganda" (Syme, *Historia Augusta Papers* 96).

The author of the *Historia Augusta* demonizes the emperor Gallienus by associating his characteristics with what the Romans perceived as inferior and uncivilized. The description of Gallienus shows how the Romans perceived other nations, especially the nations of the East. The Romans described the people of the Orient as "given to despotism, pomp, finery, luxury, effeminacy, weakness of character and faithlessness" (A. Watson 86). These views were not new to the Romans as they were already well-known by the time Zenobia came to power "gender had long been applied to East and West. This equation is unsurprising, as the Romans followed the ethnography of the Hippocratic *Airs, Waters, Places* in seeing Eastern peoples as effeminate and corrupted by luxury" (Jones 228). With these characteristics in mind, the author describes Gallienus as an unfit ruler who relies upon others to fix his problems.

Moreover, Gallienus' primary interests are lust, pleasure, and entertainment. The author goes as far as attributing the bad things happening in the Roman Empire to Gallienus. He says, "for there is nothing so quick to inspire evil men to daring and good men to the hope of good things as an evil emperor who is feared or a depraved one who is despised" (Magie 25). The author blames natural disasters on Gallienus, and according to him, even the gods were not happy with Gallienus "[a]ll these things, as I have frequently said, were done out of contempt for Gallienus, a man given over to luxury and ever ready, did he feel free from danger, for any disgraceful deed" (Magie 29). The description of Gallienus is similar to how the Romans described the Orientals. Edward Said focused on how these views came to existence in his book *Orientalism*: "neither the term Orient nor the concept of the West has any ontological stability; each is made up of human effort,

partly affirmation, partly identification of the Other" (Said xii). Said argues that the division between the East and West is artificial and manufactured.

Furthermore, this division paved the way for the biased concept of "us" and "them" to manifest and take root. Said points out that Orientalism is not only an academic field of study that produced a manufactured and misguided representation of the Orient. Nevertheless, it also contributed to viewing the Orient as inferior, and this view justified the power and authority the West held over the East. That the author of the *Historia Augusta* mentions these views about the Orient and its inhabitants is not unexpected or out of the blue. The views resulted from interactions between the two regions and the shift in power in favor of the West. He employs these inherited misconceptions about the East to show the superiority of the West. He explicitly uses these views in the biography of Herodes, Odaenathus' first son, to show the West's superiority over the East by attributing the manly behavior to the West. The author describes Herodes as "the most effeminate of men, wholly oriental and given over to Grecian luxury, for he had embroidered tents and pavilions made out of cloth of gold and everything in the manner of the Persians" (Magie 107, 109). The author does not try to hide his contempt for anybody who does not meet his narrow criteria. The biography of Herodes is concise and filled with disapproval and condemnation. Said explains this kind of writing –in *Orientalism*- by drawing attention to how the West became dominant over the East by the relationship between knowledge/power:

> ideas, cultures, and histories cannot seriously be understood or studied without their force, or more precisely their configurations of power, also being studied. To believe that the Orient was created or, as I call it, "Orientalized" —

> and to believe that such things happen simply as a necessity of the imagination, is to be disingenuous. The relationship between Occident and Orient is a relationship of power, of domination, of varying degrees of a complex hegemony. (Said 5)

The author's description of the dominance of the West was not highly explicit in the description of Zenobia and her husband Odaenathus in Gallienus' biography. He talks about Zenobia's ascension into power in the name of her two young sons after the assassination of her husband- Odaenathus, and his son, Herodes. He makes a comparison between her and Gallienus. He presents her as a capable ruler who surpassed Gallienus in her skills and courage "but surpassing in courage and skill not merely Gallienus, than whom any girl could have ruled more successfully, but also many an emperor" (Magie 45). To further cement his claims about Zenobia's superiority over the Roman emperor, the author talks about how she has defeated one of Gallienus' generals. Gallienus sent this general to fight the Persians to avenge the capture of Gallienus' father "an over-tardy vengeance for his father and, gathering an army with the help of the general Heraclianus … on setting out against the Persians, [the general] was defeated by the Palmyrenes and lost all the troops he had gathered, for Zenobia was ruling Palmyra and most of the East with the vigour of a man" (Magie 45). The author presents this defeat as an outcome of Gallienus' inability to rule. However, Heraclianus was one of the assassins who killed the Roman emperor. He was sent to battle against Zenobia by Gallienus' successor Claudius who was also one of the people who assassinated Gallienus. These actions against Zenobia show that Romans' hostility predates Zenobia's military campaign against the Roman territories (Andrade 149). Throughout this chapter, the author describes the Palmyrene queen in specific

phrases. He uses "not in a feminine manner or the ways of a woman" and that Zenobia "was ruling ... with the vigour of a man". These phrases further cement the notion of Gallienus' shortcomings as a ruler and man by pointing out his effeminate nature.

The second description of Zenobia is in the chapter titled "The Thirty Pretenders" or "Thirty tyrants," which contains the biographies of 33 people whom the book considers a threat to the Roman Empire directly or indirectly. Scholars believe that the author added this chapter to entertain his readers and add something familiar to them. After all, the original "Thirty Tyrants" was written about "the oligarchs in Athens after the Peloponnesian War. The biographies, packed with scandal and bloodshed"[1] (Sommer 211). The author uses allusion[2] to refer to other works written by near-contemporary authors who are known to his readers. Also, the events he mentioned in his book the *Historia Augusta* allude to specific ideas and characteristics. Allusion is employed to enhance the narrative, leading Syme to describe the book as "the most enigmatic work that Antiquity has transmitted" (Quoted in Roherbacher,4).

The author presents the readers with insight into Zenobia's characteristics by talking about her in the biographies of her family members. As mentioned above, he also employs the biography of Odaenathus to serve the notions of Gallienus' shortcomings. Thus, he presents Odaenathus as an example of how rulers should be. He describes Odaenathus as a ferocious warrior and a fearless hunter:

[1] Thirty Tyrants (404-403 B.C.) Spartan imposed oligarchy that ruled Athens after the Peloponnesian War. Thirty commissioners were appointed to the oligarchy, which had an extremist's conservative core, led by Critias. Their oppressive regime fostered a bloody purge, in which perhaps 1500 residents were killed. Many moderates fled the city; gathering a force, they returned to defeat the tyrants' forces in a battle in a battle at Piraeus in 403. The 30 fled and were killed off over the next few were killed off over the next few years.

[2] A statement that refers to something without mentioning it directly.

> he was fierce in warfare and … ever famous for his memorable hunts … as is the duty of a man, in taking lions and panthers … lived in the woods and the mountains... Hardened by these he was able to bear the sun and the dust in the wars with the Persians. (Magie 107)

After talking about Odaenathus' prowess, the author ends this biography by commenting on Zenobia. He describes her nobility and beauty "his wife, too, was inured to hardship and in the opinion of many was held to be more brave than her husband, being, indeed, the noblest of all the women of the East, and, as Cornelius Capitolinus declares, the most beautiful" (Magie 107). Both Odaenathus and Zenobia are tools further to emphasize Gallienus as an unfit ruler and a failure. The author also includes Zenobia in the biography of Maeonius, who is, according to the author, the one who assassinated Odaenathus and his oldest son Herodes. In this biography, the author, who is "ruthlessly unreliable and welcoming to any scandal, is alone in implicating her" (Andrade 145), talks about how the Palmyrene queen conspired with Maeonius to kill her stepson to ensure her kids rule over the kingdom. Historians believe that the author is parroting the propaganda spread about Zenobia by the courts of both Claudius and Aurelian (Andrade 145).

The author also includes the biographies of Herodes - Odaenathus' first son, Maeonius. Odaenathus' cousin-and Herennianus and Timolaus, Odaenathus and Zenobia's children. The author's disapproving tone in Herodes' biography conforms with the Romans' image associated with the people of the Orient. Said notes this view as:

> [the making] out of every observable detail a generalization and out of every generalization an immutable law about the Oriental nature, temperament,

> mentality, custom, or type; and, above all, to transmute living reality into the stuff of texts, to possess (or think one possesses) actuality mainly because nothing in the Orient seems to resist one's powers. (Said 86)

The author also includes in the chapter "The Thirty Pretenders" the biographies of Zenobia's two sons – Herennianus and Timolaus, whom historians consider the "inventions of the author, who seldom hesitates when it comes to delivering a creative interpretation of history" (Sommer 150). He includes their biographies to highlight the difference between the West and East.

The biography of Herennianus is simply about Zenobia. The author talks about how she ruled her kingdom in her children's names. Also, he describes how she presented them to the public dressed in purple just like the Roman emperors, and how she attended these public gatherings dressed as a man:

> Zenobia seized the imperial power, holding the government longer than was meet for a woman. These boys she displayed clad in the purple robe of a Roman emperor and she brought them to public gatherings which she attended in the fashion of a man, holding up, among other examples, Dido and Semiramis, and Cleopatra, the founder of her family. (Magie 131)

Even though the biography of Herennianus is short, the author employs it to keep reminding the reader of why he includes Zenobia in the "Thirty Pretenders" chapter. He reminds the reader of the superiority of Roman costumes over the costumes of the Palmyrenes. Furthermore, he reminds the reader of the superiority of men over women by linking power to men. Thus, he has Zenobia dressed like a man when attending public gatherings. By linking her

with Dido, Semiramis, and Cleopatra, the author conjures their deeds and actions that made them famous. Dido, a queen who founded Carthage [modern-day Tunisia], according to Virgil's *Aeneid,* fell in love with Aeneas, whose descendants founded Rome. Dido committed suicide after Aeneas abandoned her. She, before her death, cursed the Trojans, which provided a mythical origin for the Punic Wars between Rome and Carthage. The Romans won the war and destroyed the city. Semiramis was married to an Assyrian king and ruled the kingdom after his death. During her role as a regent for her underage son, Semiramis waged wars against neighboring kingdoms.

The author treats the biography of Timolaus similarly to his brother's biography by using these biographies to show the superiority of the Romans. However, he states that Timolaus, unlike his brother Herennianus, was an eager student of Latin. Timolaus' eagerness made him one of Rome's greatest rhetorics:

> which distinguished him from his brother, that is, that such was his eagerness for Roman studies that in a short time, it is said, he made good the statement of his teacher of letters, who had said that he was in truth able to make him the greatest of Latin rhetoricians. (Magie 133)

Zenobia's biography in "The Thirty Pretenders" is the longest in this chapter and one of only two women perceived as threats to and usurpers of the Roman throne. Her biography is also the longest among the biographies of her family members. The Palmyrene queen's biography does not follow a chronological order. The author does not provide information about her lineage, birth, or family, except for Zenobia's claim of being a descendant of "Cleopatras and the Ptolemies" (Magie 135). This lack of information about her life "may be explained by the author's lack

of information, which consequently led to a partly fictional biography-like piece of literature" (Burgersdijk 141). However, he does not fail to show the true purpose behind writing her biography. The author presents her to the readers as a capable and worthy leader, a usurper of the Roman throne, and a model of a virtuous yet typically flawed woman.

In her biography, the author's primary focus is on trying to present the events and characteristics of Zenobia. This presentation benefits his narrative of the superiority of the Romans and the superiority of men over women. In other words, Zenobia's biography in the *Historia Augusta* is a literary manifestation of "foreign versus Roman, East versus West, and feminine versus masculine" (Jones 3). First, the author does not give her any credit as a ruler that could be a threat to the Roman Empire. He attributes that to Gallienus' failures. Even though, according to Roman laws, "Zenobia was a Roman citizen" (Andrade 43). The author of the *Historia Augusta* has no problem in calling her a foreigner to use it as a synonym for barbarian (Andrade 54) which is truly his purpose behind using the word "foreigner":

> Now all shame is exhausted, for in the weakened state of the commonwealth things came to such a pass that, while Gallienus conducted himself in the most evil fashion how, even women ruled most excellently foe, in fact, even a foreigner, Zenobia. (Magie 135).

The author restates that Zenobia was able to rule and be a threat to the Romans, due to Gallienus' inadequacy as ruler and Claudius and Aurelian being busy defending Rome against the Goths. However, Aurelian, once done with his wars against the Goths, is able to defeat Zenobia and restore the order in the region under the authority of the Roman Empire:

> this proud woman performed the functions of a monarch both while Gallienus was ruling and afterward when Claudius was busied with the war against the Goths, and in the end could scarcely be conquered by Aurelian himself, under whom she was led in triumph and submitted to the sway of Rome. (Magie 135)

Then the author of the *Historia Augusta* includes Aurelian's letter explaining why Aurelian captured Zenobia instead of killing her. However, he presents her as a capable queen in this letter, which contradicts the author's earlier statements in her biography. In this letter, the author through Aurelian explains how she was able to be a queen and maintain her throne. Furthermore, how she expanded her kingdom by conquering regions that were part of the Roman Empire. Aurelian says that she was a wise and unwavering leader. He continues by saying that she was braver than her husband – Odaenathus- and was the one who made his victory over the Persians possible "I might even say that it was her doing that Odaenathus defeated the Persians and, after putting Sapor to flight, advanced all the way to Ctesiphon" (Magie 137). Aurelian continued that she was a feared queen and no one in her region dared to move against her: "this woman inspired in the peoples of the East and also the Egyptians that neither Arabs nor Saracens nor Armenians ever moved against her" (Magie 137). Aurelian concluded this letter by giving his reasons for sparing Zenobia's life. He wrote, "[n]or would I have spared her life, had I not known that she did a great service to the Roman state when she preserved the imperial power in the East for herself, or for her children" (Magie 137). The author also includes a conversation between Zenobia and Aurelian after her defeat. The author has Zenobia say:"

> You, I know, are an emperor indeed, for you win victories, but Gallienus and Aureolus and the others I never regarded as emperors. Believing Victoria to be a woman like me, I desired to become a partner in the royal power, should the supply of lands permit. (Magie 141)

The author carries on by stating how she was led in chains through the streets of Rome:

> She was led in triumph with such magnificence that the Roman people had never seen a more splendid parade. For, in the first place, she was adorned with gems so huge that she laboured under the weight of her ornaments; for it is said that this woman, courageous though she was, halted very frequently, saying that she could not endure the load of her gems. Furthermore, her feet were bound with shackles of gold and her hands with golden fetters, and even on her neck she wore a chain of gold, the weight of which was borne by a Persian buffoon. (Magie 141)

He concludes Zenobia's biography by saying that Aurelian spared her and her children. Furthermore, she was given a villa to spend the rest of her life in it:

> she lived with children in the manner of a Roman matron on an estate that had been presented to her at Tibur, which even to this day is still called Zenobia, not far from the palace of Hadrian or from that place which bears the name of Concha. (Magie 141-143)

The third time the author talks about Zenobia is in the biography of Aurelian. The author treats the biography of Aurelian as if it were the biography of someone otherworldly. He starts the biography with a description of the occasion that led to writing Aurelian's biography. He begins by talking about meeting with a Roman counsel, Junius Tiberianus. After a brief conversation with the author, Junius shows his bewilderment when the author tells him that he only read about Aurelian in Greek, not Latin. Aurelian was a great ruler and was able to restore peace and stability to Rome "…Deified Aurelian, that most famous of princes, that most firm of rulers, who restored the whole world to the sway of Rome, be unknown to posterity? God prevent such madness!" (Magie 195).

The author then proceeds with Aurelian's biography. Aurelian was born in a humble place, and no one knows precisely where. The author makes light of this lack of information by saying that what is essential is knowing what he achieved, not where he was born: "the chief thing to be known is not in what place he was born, but how great he was in the State" (Magie 197-201).

The author uses the account of different writers when describing Aurelian's childhood. He also includes lists of "omens" that occurred to Aurelian, which foretold the future of Aurelian. The author also includes events of similar nature that occurred to Aurelian by the same unknown writer. For example, while Aurelian was in the Roman army, a purple cloak fell upon his shoulders, and he unknowingly rode the emperor's horse. The Persian emperor gave Aurelian a sacrificial saucer with the engraving of the sun god. Furthermore, he was given an elephant as a present (Magie 201-203). The author then talks about his characteristics as a man and leader. As a man, Aurelian was good to look upon for his physical appearance. Aurelian was tall, had strong muscles, and enjoyed wine and food, yet rarely indulged his passions (Magie

203). As a leader, he was disciplined like no other. Moreover, he was always ready to go into battles, for no one was faster than him in drawing a sword. His soldiers feared him greatly. Aurelian did not tolerate insolences and dealt with severe punishments quickly. The author carries on with this line of writing, i.e., writing about Aurelian's battles and victories, and including letters written by Aurelian or about Aurelian.

Regarding Zenobia's account in the biography of Aurelian, the author presents a different version of her. She is no longer the wise and courageous leader who may have been the reason behind the victories of her husband's battles. Nietzsche describes this shift as the will to power which is a "quanta of force the essence of which consists in wielding power over all other quanta of force, not that there is a 'principle', 'law' or 'order' involved" (Nietzsche 393). The author exercises his will to power over Zenobia as an Oriental and a woman. The description of biographies and events in the *Historia Augusta* serves the notion of the superiority of the Romans. The Romans dominate other nations and empires as nation and empire. They are the most sophisticated; their customs are refined; they are above everyone else. The author associates power and masculinity with the Romans by feminizing their supposed enemies. Nietzsche explains the necessity for power through existential purposes "*[t]his world is the will to power- and nothing besides!* And even you yourselves are this will to power- and nothing besides!" (Nietzsche 586) The author relies on pre-fixed notions regarding the superiority of the Romans. These notions were taken from the Greeks regarding the inferiority of other nations and women. The Romans had built upon these notions and made them their own. These notions were vital because they separated the Romans from other nations "the general rule of existence is the absolute defense of one's personal interest and the unlimited reign of the will to power" (Glosan xxi).

The archeological discoveries and the works of historians specialized in history of the region prove that Zenobia attacked lands under Rome's sway. Some historians believe that she did so to ensure the circumstances remained as they were between Rome and Palmyra after the assassination of the emperor Gallienus. However, neither Emperor Claudius nor his successor Aurelian accepted that arrangement (Andrade 173). The author states that after ensuring peace and order in Rome and the conflicting territories, Aurelian set his eyes on the eastern frontiers to bring them under the sway of Rome. Also, he talks about how Aurelian's leniency and wisdom when dealing with the people of these disputed territories made him more loved by them and ensured his victories. Then, he talks about Aurelian's battle against Zenobia near Emesa [modern-day Homs]. He describes the exhausted condition of the Roman soldiers and how they were almost defeated. And how the gods interfered by reversing the outcome of the battle in favor of Aurelian:

> When Aurelian's horsemen, now exhausted, were on the point of breaking their ranks and turning their backs, suddenly by the power of a supernatural agency, as was afterwards made known, a divine form spread encouragement throughout the foot- soldiers and rallied even the horsemen. Zenobia and Zaba were put to flight, and a victory was won in full (Magie 245).

After acknowledging the help of the gods and paying them proper respect, Aurelian marched to Palmyra. On his way, he was met with hardship and hostility by the inhabitants of Syria. He was wounded by an arrow while besieging Palmyra "his army met with a hostile reception from the brigands of Syria, and after suffering many mishaps he incurred great danger during the siege, being even

wounded by an arrow" (Magie 245). The author then includes a letter by Aurelian addressed to Mucapor- an unknown figure- expressing how brutal the war against Zenobia is. This letter "focalize[s] the narrative through Aurelian and Zenobia, who present competing models for the correlation of power and gender" (Jones 224). In this letter, he says that he is not only battling Zenobia, but he must also be battling a man because she is a baser enemy "as if Zenobia alone and with her own forces only were fighting against me, and yet, as a matter of fact, there is as great a force of the enemy as if I had to make war against a man, while she, because of her fear and her sense of guilt, is a much baser foe" (Magie 247). The mentioned letter describes how well-prepared the Palmyra people were for battle. Aurelian says Zenobia is ruling the Palmyrene kingdom on behalf of her son Vaballathus. Here the author provides factual information about her son, he does not bring up the fictional two sons. The letter provides Aurelian's perception of Zenobia as a woman fighting to escape her punishment and concludes his letter by stating his belief that the gods will come to the aid of the Romans. "She fears like a woman, and fights as one who fears punishment. I believe, however, that the gods will truly bring aid to the Roman commonwealth, for they have never failed our endeavors" (Magie 247). Describing her as a lesser opponent based on her gender makes Aurelian feel as if he is being "rob[bed] of the glory he feels he deserves for defeating an army as well-prepared and well-supplied as the Palmyrenes, with their ample stores of weapons and sophisticated engines of war that can hurl fire" (Jones 225). The author also talks about how Aurelian felt exhausted and frustrated with how the war was going. Therefore, he wrote to Zenobia: "[f]rom Aurelian, Emperor of the Roman world and recoverer of the East, to Zenobia and all others who are bound to her by alliance in war" (Magie 247). In this letter, he commands her to surrender along with everything she owns to spear her life:

> You should have done of your own free will what I now command in my letter. For I bid you surrender, promising that your lives shall be spared, and with the condition that you, Zenobia, together with your children shall dwell wherever I, acting in accordance with the wish of the most noble senate, shall appoint a place. Your jewels, your gold, your silver, your silks, your horses, your camels, you shall all hand over to the Roman treasury. As for the people of Palmyra, their rights shall be preserved (Magie 249)

This letter also shows how the only ones punished were Zenobia and her children. The lives and rights of the Palmyrene people were preserved. However, Zenobia and her possessions were seized by the Romans. This letter, much to the previous one, "shows us the tension between gender identity and political authority … perhaps implying that punishment of Zenobia as an individual was a higher priority for Aurelian than subjugating Palmyra as a whole" (Jones 226).

The author then includes Zenobia's reply to Aurelian's letter. He, in this letter, diminishes her as a capable and legitimate threat to the Romans. Furthermore, restating the superiority of men over women through the letter she wrote as a reply to Aurelian:

> From Zenobia, Queen of the East, to Aurelian Augustus. None save yourself has ever demanded by letter what you now demand. Whatever must be accomplished in matters of war must be done by valour alone. You demand my surrender as though you were not aware that Cleopatra preferred to die a Queen

> rather than remain alive, however, high her rank. We shall not lack reinforcements from Persia, which we are even now expecting. On our side are the Saracens, on our side, too, the Armenians. The brigands of Syria have defeated your army, Aurelian. What more need be said? If those forces, then, which we are expecting from every side, shall arrive, you will, of a surety, lay aside that arrogance with which you now command my surrender, as though victorious on every side. (Magie 249)

The letter presents her as a lesser enemy and a vain woman who refuses to stop the war and save her people. However, it also shows -indirectly- her defiance of gender roles imposed on her by the author through Aurelian. First, she criticized Aurelian because he demanded boldly her surrender by letter. She continued by saying that deeds and courage determine the outcomes of wars. Second, by talking about Cleopatra, Zenobia conjured not only a figure known for her defiance of Rome. But also, a figure who chose to kill herself rather than be captured by the Romans. Zenobia's letter is also one of the pieces of evidence of the manufactured differences between the West and the East. (Jones 227-228). The author then talks about how Aurelian became enraged by Zenobia's letter. That he gathered his soldiers and besieged Palmyra, intercepted her reinforcements, and made them go back on their deal with her. Thus, with great effort, he defeated her and later captured her after her failed escape attempt. The author concludes the story of Zenobia in Aurelian's biography by saying that Aurelian decided to save her life to show her to the Roman people after killing Zenobia's advisers and generals:

> Aurelian, however, deeming it improper that a woman should be put to death,

> killed many who had advised her to begin and prepare and wage the war, but the woman he saved for his triumph, wishing to show her to the eyes of the Roman people. (Magie 253)

Also, the author describes the scene in which Zenobia was part of Aurelian's victory parade. He says that she was in a charoite she had explicitly built to enter Rome as a queen. Even though she entered Rome riding the charoite, she did so as a defeated captive.

Zenobia's role in the *Historia Augusta* was not limited to her being a representative of the East and a tangible threat to the Roman Empire and its perspectives on other non-Romans and women. However, her other role is her characteristics as a woman. The author gives a lengthy description of her characteristics as a woman. However, he presents her in a Roman way. His description of her heavily relies on Juvenal's satire 6. In this satire, Juvenal tries to dissuade a friend from marriage because the women in Rome are not faithful. Juvenal's satire 6 is a general attack on women (Watson and Watson 8). The traits Juvenal described in his satire are about women's sexual morals, how they dressed, bragging about their ancestors, knowing literature and speaking multiple languages, and their masculine activities such as fighting and wearing helmets (Burgersdijk 141-142). However, the author uses these descriptions to present a positive picture of Zenobia as a successful warrior-queen (Burgersdijk 142). His description of Zenobia is not simply a description of a victorious queen but also serves as a comparison between Roman mannerisms and culture and the Persians. Said identifies this act as the "idea of European identity as a superior one in comparison with all the non-European peoples and cultures." (Said 7) The author starts by talking about how she viewed marriage. Marriage for Zenobia was a means only to procreate "once she had lain with him, she would refrain until the time of menstruation to see if she were pregnant ; if not, she would

again grant him an opportunity of begetting children" (Magie 139). As if the author wants to emphasize the point that she is a counterpart to the women described by Juvenal (Burgersdijk 143). He then describes the duality in her characteristics by talking about what she does in the manners of both Romans and Persians. He compares these two mannerisms and shows the superiority of the Roman ones. "[I]n the manner of the Persians that she received worship and in the manner of the Persian kings that she banqueted ; but it was in the manner of a Roman emperor that she came forth to public assemblies, wearing a helmet and girt with a purple fillet" (Magie 139). This passage also indicates that Zenobia -familiar with these two cultures- favored the Romans over the Persians regarding how she presented herself to her soldiers and people.

The author also describes her physical appearance:

> Her face was dark and of a swarthy hue, her eyes were black and powerful beyond the usual wont, her spirit divinely great, and her beauty incredible. So white were her teeth that many thought that she had pearls in place of teeth. Her voice was clear and like that of a man (Magie 139).

The ideal beauty in Roman times consisted of smooth skin, white teeth, and big eyes. The author makes use of the examples Juvenal attributed to unattractive women. "Let three wrinkles make their appearance; let her skin become dry and flabby; let their teeth turn black, and her eyes lose their lustre" (Burgersdijk 144). The author gives Zenobia an appearance familiar to his readers and what the Romans considered attractive.

After presenting the readers with the physical description of Zenobia, the author describes how she holds herself in front of her soldiers. He also gives an account of how she treats them, how she acts in times of war, and the way she deals with her neighboring

kingdom and tribes. However positive these descriptions may seem; the author does not fail in pointing out how unnatural these acts are for a woman:

> Her sternness, when necessity demanded, was that of a tyrant, her clemency, when her sense of right called for it, that of a good emperor. Generous with prudence, she conserved her treasures beyond the wont of women. She made use of a carriage, and rarely of a woman's coach, but more often she rode a horse; it is said, moreover, that frequently she walked with her foot-soldiers for three or four miles. She hunted with the eagerness of a Spaniard. She often drank with her generals, though at other times she refrained, and she drank, too, with the Persians and the Armenians, but only for the purpose of getting the better of them. At her banquets she used vessels of gold and jewels, and she even used those that had been Cleopatra's (Magie 139).

Then he shifts back to describing the length she went through to ensure her virtue. She only had eunuch old men and very few girls. This description is not only made to praise her virtue but also as a means to discredit the men of her region "[i]t depicts men of the Near East as emasculated. Zenobia, manly as ever, dominates them" (Sommer 74). The author also adds how she valued knowledge and education, for she had her children learn Latin. She spoke Greek and Egyptian and knew the history of her region. These descriptions of Zenobia's physical appearances and characteristics serve the author's primary purpose in showing the superiority of the West over the East and men over women.

Foucault explains this shift of presentation in Zenobia's character in his essay "The Order of Discourse," in which he says that:

> in every society the production of discourse is at once controlled, selected, organized, and redistributed by a certain number of procedures whose rule is to ward off its power and dangers, to gain mastery over its chance events, to evade its ponderous, formidable materiality (Foucault 52).

The author puts himself in a self-contradictory position in which he gives a contradictory role to Zenobia -as mentioned earlier- she is a strong and capable ruler compared to Gallienus. However, compared to Aurelian, she ruled simply because the Roman emperor was busy with other wars on different frontiers. The author uses what Foucault designates as the external procedures of exclusion: "the forbidden speech; the division madness; and the will to truth" (Foucault 55). What Foucault means by the forbidden speech is that a set of rules controls the speech. Not just anybody has the right to speak, nor anybody can talk about anything at any given time; this reveals how desire and power are connected in discourse (Foucault 52). Foucault further explains the need to control discourse by saying:

> There is nothing surprising about that, since, as psychoanalysis has shown, discourse is not simply that which manifests (or hides) desire- it is also the object of desire; and since history constantly teaches us, discourse is not simply that which translates struggles or systems of domination, but is the thing for which and by which there is

> struggle, discourse is the power which is to be seized. (Foucault 52-3)

The forbidden speech is found when the author has Zenobia speaking to cement the notion of Aurelian's superiority over her as a ruler. Furthermore, he alludes to women's inferiority by having her speak as a vain and irrational woman.

The second external procedure, the division between reason and madness, rejects "the power of uttering a hidden truth, of telling the future, of seeing in all naivety what the others' wisdom cannot perceive" (Foucault 53). In other words, the complete rejection of anything uttered that does not comply with what is known and considered sane and socially acceptable. The author rectifies the damage done by Zenobia, which is perceived as madness in his time, by emphasizing her defeat and how she was led to Rome.

The third external procedure, the will to truth, separates the arbitrary truth from the arbitrary falsehood supported by any society and its institutions (Foucault 56). Foucault stresses the importance of the will to truth, for not only the other previous sets are strongly connected to it but also incorporated by it "what is at stake in the will to truth, in the will to utter this 'true' discourse, if not desire and power?" (Foucault 55). Zenobia's biography in The Historia *Augusta* is a testimony to the length the author takes to cement the notions of the superiority of the Romans and the superiority of men over women. Zenobia is a direct threat to what the author perceives as truths.

Not only does the author use the external procedure of exclusion, but also the internal procedures of exclusion. Foucault's internal procedures of exclusion are "commentary; the author; disciplines; and the rarefication of the speaking subject" (S. Mills 58). The main concern of these procedures is also to form and

control the narrative of discourse and to authorize who has the right to speak (S. Mills 58-59). Commentary, in some texts, is commenting on what is previously has been written; nothing new is added to the text. Foucault says:

> There is in all societies, with great consistency, a kind of gradation among discourses: those which are said in the ordinary course of days and exchanges, and which vanish as they have been pronounced; and those which give a rise to a certain number of speech acts which takes them up, transform them or speak of them, in short, those discourse which, over and above their formulation, are said indefinitely, remain said, and are to be said again. (Foucault 57)

Commenting on any work gives it an appeal and contributes to the work's popularity and versatility. Furthermore, it contributes to revealing other meanings of any work. Foucault says, "the commentary must say for the first time what had, nonetheless, already been said, and must tirelessly repeat what had, however, never been said" (Foucault 58). The author talks about Zenobia's male-like behavior and includes what is already regarded as the truth about the East, its people, and women. He invents events and characters and adds information to serve the superiority of the Romans. In the end, Zenobia lost, and the lands were restored under the sway of Rome.

The second internal procedure of exclusion is the author, who plays a different role from commentary when it comes to limiting a text. The compulsive need to know everything about the author and connect their work into a unit limits the development of the way we perceive any text. Foucault's term "author" means not the

individual or individuals who produced the text. Foucault perceives the author as a "… grouping of discourse, conceived as the unit and the origin of their meanings, as the focus of their coherence" (Foucault 58). In other words, they are giving unity or specific meaning to a group of multiple texts based on authorship and traditions. The author of the *Historia Augusta* uses allusions, forgery, and invention in his writing, all to cement Roman's perception of other nations and women.

The third procedure of internal exclusion is disciplines, of which Foucault says, "[it is] a principle which is itself relative and mobile; which permits construction, but within narrow confines" (Foucault 59). A discipline limits a discourse because it limits what can be considered possible knowledge in a particular subject area (S. Mills 60). Discipline allows anyone to contribute to a text as long as they conform to the set of methods, objects, and propositions without considering the contributor's personality. The author's presentation of the East and Zenobia as inferior is a testimony to the circulation of these notions without caring about their origin or legitimacy.

The final procedure of internal exclusion is the rarefication of the speaking subject. It is about controlling the unpredictability of discourse through a set of rules. First, these rules determine who has the right and the authority to speak. Secondly, the speech will be conducted by gestures, signs, and behavior that must accompany words. Finally, fixing the supposed or imposed efficacy of words, their effect on the audience, and the limits of their constraining values (Foucault 59). The author has Zenobia speaking twice in the *Historia Augusta*. The first time she speaks to Aurelian is after her defeat and capture by him. She – as the author intends- serves her purpose in admitting the superiority of the Romans over the Eastern and men over women. The second time Zenobia speaks is through a letter composed by herself to Aurelian. In this letter, the author has her presenting herself in contrast to her characteristics in the

biography of Gallienus and her biography. The author presents her as vain and prideful.

In short, if we put aside all the forgery and inventions the author made in the story of Zenobia. In *The Historia Augusta*, Zenobia manifests the conflict between the West and the East and between men and women. Her biography also presents how victory and power shape concepts. Her story in *The Historia Augusta* is a reaffirmation of the inherited concepts concerning the superiority of the West and men and the inferiority of the East and women. Thus, her life is "constituted by the meanings and representations generated by human signifying practices, and the relations of power and its consequences that are inherent in such representations" (Parker 7).

Works Cited

Andrade, Nathanael J. *Zenobia: Shooting Star of Palmyra*. New York: Oxford University Press, 2018.

Burgersdijk, Diederik. "Zenobia's Biography in the Historia Augusta." *Talanta* Volums XXXVI-XXXVII (2004-2005) (2005): 139-152.

Foucault, Michel. "The Order of Discourse." *Untying the Text: A Post-Structuralist Reader*. Ed. Robert Young. Boston: Routledge & Kegan Paul, 1981. 51-78.

Glosan, Richeard J. Rousso, Henry. *Stalinism and Nazism: History and Memory Compared*. Ed. Henry Rousso. Trans. Thomas C. Hilde, and Peter S. Rogers Lucy B. Golsan. Lincoln: University of Nebraska Press, 2004. ix- xxvi.

Jones, Prudence. "Rewriting Power: Zenobia, Aurelia, and the Historia Augusta." *Classical World* 109.Winter 2016 (2016): 221-233.

Magie, David, trans. *Historia Augusta*. Vol. III. Cambridge: Harvard University Press, 1932. III vols.

Mills, Sara. *Michel Foucault*. New York: Routledge Tylor and Francis Group, 2003.

Nietzsche, Friedrich. *The Will to Power*. Ed. R. Kevin Hil. Trans. R. Kevin Hill and Michael A. Scarpitt. London: Penguin Books, 2017.

Parker, Chris. *Making Sense of Cultural Studies: Central Proplems and Critical Debates*. London: Sage Publications, 2002.

Said, Edward. *Orientalism*. London: Penguin Classic, 2003.

Sommer, Micheal. *Palmyea: A History*. Trans. Diana Sommer-Theohari. London: Routlrdge, 2018.

Southern, Pat. *Empress Zenobia: Palmyra's Rebel Queen*. London: Continuum, 2008.

Syme, Ronald. *Emperors and Biographies: Studies in the Historia Augusta*. Oxford: The Clarendon Press, 1971.

—. *Historia Augusta Papers*. Oxford: Claredon Press, 1983.

Syvanne, Ilkka. *The Reign of Emperor Gallienus: The Apogee of Roman Calvary*. Barnsley: Pen and Sward, 2019.

Watson, Alric. *Aurelian and the Third Century*. London: Routledge, 1999.

Watson, Lindsay and Patricia Watson, *Juvenal: Satire 6*. Cambridge: Cambridge University Press, 2014.

بدايات النشاط البحري للأسطول العربي الإسلامي

طالب الدكتوراه: علي موسى طالب

تاريخ العرب والإسلام – كلية الآداب – جامعة البعث

إشراف الدكتور: بسام العلوش

الملخص

مما لا شك فيه أن البحرية الإسلامية لم تنشأ دفعة واحدة، ولم تكن وليدة العصر الذي ظهرت فيه على المسرح التاريخي بقوتها وأهميتها الكبرى، بل إن جذورها تمتد إلى مرحلة مبكرة من التاريخ العربي الإسلامي، وإذا أردنا التحديد يمكن القول إن جذورها تعود إلى بدايات الفتح العربي الإسلامي المنظم لبلاد الشام ومصر والمغرب، وما رافقه من دخول القبائل البربرية في الإسلام، وهذا شكل التربة المناسبة والبيئة الخصبة من أجل العمل على استخدام قوة بحرية تشد أزر القوات البرية وتساعدها على إتمام عمليات الفتوح، وذلك بعد أن وجد الفاتحون أنه لابد من إنشاء قاعدة بحرية تواجه القوة البيزنطية التي كانت تستغل افتقار المسلمين إلى القوة البحرية، وتعمل على إرسال الحملات البحرية لشد أزر الحاميات البيزنطية الموجودة في أفريقية ولإضعاف المسلمين وكسر شوكتهم.

ولا يخفى على الباحث في التاريخ الإسلامي أهمية دراسة القوى البحرية سواءً أكانت حربية أم تجارية ودراسة النشاط البحري لكل دولة إسلامية في مشرق العالم الإسلامي وغربه وأهدافه، وذلك لما تضفي على أحداث التاريخ ومجرياته من أثر كبير سواءً على الصعيد الحضاري والسياسي، وتساهم إلى حدٍ بعيد في

الكشف عن مكنون العلاقات وجوهرها، وتميط اللثام عن مدى القدرة على جوب البحار وخوض غمارها وخوض المعارك فيها.

ولعل هذه الدراسة تسلط الضوء على واحدة من أعظم المفاخر للحضارة العربية الإسلامية في عالم البحار في القرن الأول والثاني الهجري/السابع والثامن الميلادي، حيث مثلت البلاد الإسلامية منطقة أساسية من مناطق القوة البحرية والتجارية في عالم البحر المتوسط، وعلى الرغم من الصراعات والفتن التي شهدتها المرحلة؛ فقد شهد النشاط البحري تطوراً – بل تفوقاً– لا يمكن إغفاله في المجال العسكري، وليس من المغالاة أن يكون هذا العصر المؤسس الحقيقي لعصر السيادة الإسلامية على جزر البحر المتوسط الغربي والسواحل الأوروبية المطلة على هذا القسم من البحر، مما كان له تأثير على مقدرات الدول الاقتصادية.

الكلمات المفتاحية: النشاط البحري، الأسطول العربي الإسلامي، الحملات البحرية الإسلامية، فتح جزر البحر المتوسط.

The beginnings of the naval activity of the Arab Islamic fleet

ABSTRACT

There is no doubt that the Islamic navy was not created all at once, and it was not the product of the era in which it appeared on the historical stage with its strength and great importance. Rather, its roots extend to an early stage of Islamic history. The organizer of the Levant, Egypt and Morocco, and the accompanying entry of the Berber tribes into Islam, and this formed the fertile soil in order to work on the use of a naval force that would strengthen the land forces and help them complete the process of conquest, after the conquerors found that it was necessary to establish a naval base facing the Byzantine force Which was taking advantage of the Muslims' lack of naval power, and was working on sending naval campaigns to strengthen the Byzantine garrisons in Africa to weaken and break the Muslims.

The researcher in Islamic history is not aware of the importance of studying naval forces, whether warlike or commercial, and studying the maritime activity of every Islamic country in the east and west of the Islamic world and its goals, because of the great impact it has on the events of history, both on the civil and political levels, and contributes to a large extent. In revealing the secrets and essence of relationships, and revealing the extent of the ability to roam the seas, engage in them and fight battles in them.

Perhaps this study sheds light on one of the greatest feats of the Arab-Islamic civilization in the sea world in the first and second centuries AH /seventh and eighth AD, as the Islamic countries represented a key area of maritime and commercial power in the Mediterranean world, despite the conflicts and strife that the stage witnessed. Maritime activity witnessed a development - even superiority - that cannot be overlooked in the military field, and it is not exaggerated that this era was the real founder of the era of Islamic sovereignty over the islands of the western Mediterranean and the coasts overlooking this section of the sea, and this had an impact on the economic capabilities of countries.

Key words: Naval activity, the Arab Islamic fleet, the Islamic naval campaigns, the conquest of the Mediterranean islands.

مقدمة.

يبدو للوهْلَةِ الأولى أن البحث في موضوع كهذا يحتاج إلى وقت طويل، وإلى كتب ومجلدات لحصره، إلا أنه سيتم إلقاء إضاءات بشكل عام خلال مرحلة الدراسة بالشكل الذي يمكن من خلاله تكوين فكرة شاملة عن النشاط البحري من غير إطناب ممل ولا اختصار مخل.

ومما لا يدع مجالاً للشك أن البحر بوصفه حيزاً مكانياً يفرض قوانين وتقنيات خاصة به، وعليه تبدو الحاجة لمن رغب في خوض غماره أن يكون على قدرٍ كافٍ من المعرفة والدراية والخبرة بشؤونه[1]، فهل كان العرب في بداية الفتوح الإسلامية يتقنون تلك المعارف؟ وماهي البراهين إذا كانت موجودة فعلاً؟

العرب المسلمين في العصر الراشدي كانوا داخل حدود الجزيرة العربية الصحراوية، ولم تتعدَ فتوحاتهم ومعاركهم حدودها الجغرافية في عصر الرسول ﷺ، كما أن أولى المعارك التي كانت على أطراف العراق وبلاد الشام من الناحية الجنوبية لم تكن قريبة من البحر[2]، وبالتالي لم يكن للبحر أثر في نشاطهم– باستثناء بعض المحاولات لركوب البحر في حروب الردة– حيث أن المسلمين بقوا على اتصال بأطراف الصحراء، ولم يتوغلوا إلى المدن الساحلية[3]، ولعل السيطرة الأجنبية الحبشية والفارسية على بلادهم قضت على تجارة العرب مع الهند، كما أن ندرة الأشجار التي تصلح لصناعة السفن في

([1]) **Siegfried,** Andre: **the Meditrraniau,** trans from the frence by doris hemminy, Second edition, London, 1949, p168.

([2]) **طالب**، علي: **دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية** منذ صدر الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي (1–132هـ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية، 1441هـ/2020م، ص193.

([3]) **حسونة**، محمد أحمد: **أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية**، دار نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، 1380هـ/1960م، ص22.

بلادهم الصحراوية، وقلة المواد اللازمة لصناعة السفن، وخطورة الملاحة في البحر الأحمر، كلها شكلت أسباباً أساسية في تأخر العرب في ركوب البحر[1].

وإن كان العرب تأخروا في الإبحار فهذا لا يعني أنهم لم يفطنوا إلى أهمية البحر، وهذا لا يعني جهلهم الكامل بشؤونه[2]، والدليل أنه بعد استقرار ملكهم، واتساع سلطانهم، أدركوا أهمية إنشاء أسطول بحري يحمي المناطق التي سيطروا عليها بعد أن تمت الفتوحات على جبهة بلاد الشام؛ وذلك من خلال وجود أسطول قوي يضمن لهم إحباط المحاولات البيزنطية لاسترداد الشام ومصر من جهة البحر[3]، وبالتالي وجهوا العديد من الحملات والغزوات عبر البحر، في محاولة لفرض السيطرة على تلك الجزر، ولعل من المهم جداً إلقاء الضوء على المحاولات الأولى لفرض السيطرة البحرية على الجزر سواءً في الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط.

1- إشكالية البحث.

تكمن إشكالية البحث "**مشكلة البحث**" في بيان وتوضيح الدور الذي أسهمت به البحرية الإسلامية في تثبيت الحكم العربي الإسلامي في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، وبيان مبلغ أثرها في الأحداث التاريخية.

وتضاف إشكالية غاية في الأهمية وهي: محاولة تسليط الضوء على علاقة الدول الإسلامية مع الممالك النصرانية في أوروبا في ذلك الوقت، وما ساد هذا الواقع من حملات بحرية وعمليات قرصنة وحروب بحرية من كلا الجانبين.

([1]) **أحمد**، نهلة شهاب: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 2009م، ص7. **سالم**، عبد العزيز و**العبادي**، أحمد مختار: **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م، ص14.

([2]) **أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص7.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص17.

2- أهمية البحث.

تبرز أهمية البحث كونه إحدى المحاولات التي يراد من خلالها إيضاح أهمية النشاط البحري العربي الإسلامي العسكري في بداية نشأة الدولة العربية الإسلامية.

كما يرى الباحث أن في دراسة النشاط البحري أثره أهمية كبيرة، ومنفعة عظيمة، لأن أغلب الدراسات اتسمت في معظمها بطابع التجسيد والوصف للواقع السياسي والاجتماعي للأمة العربية الإسلامية، وتأتي هذه الدراسة في سبيل إلقاء الضوء على النشاط البحري.

3- صعوبات البحث.

لكل عمل علمي مهما كان نوعه، وطريقة بحثه صعوبات متعددة منها:

- كثافة الأفكار التي يستقيها البحث.
- طول الفترة الزمنية منذ العصر الراشدي وحتى نهاية العصر الأموي، وبالتالي وجب الحصول على المصادر والمراجع المتعلقة بهذا البحث.
- الكثير من الدراسات التي تناولت دراسة النشاط البحري في العصر الإسلامي كانت دراسة عامة أي ترد ضمن السياق التاريخي للحدث، وتندر وجود الأبحاث المتخصصة بالحديث عن النشاط البحري، وهذا ما فرض جمع المعلومات من المراجع التي توفرت والتي كانت ذات دراسة تاريخية سياسية أو عسكرية.

4- منهجية البحث.

بهدف الوصول إلى نتائج قيّمة ودقيقة، قام البحث على دراسة عدة أمور والتطرق لها في محاولة لإلقاء الضوء على عدة نواحي عني البحث بها من خلال ما جاء في المصادر والمراجع، معتمداً على مناهج بحثية متعددة، وهي:

- دراسة وصفية تاريخية **(المنهج الوصفي)** من أجل إلقاء الضوء على البحرية الإسلامية والنشاط البحري الذي كان سائداً في المرحلة التي هي موضع الدراسة.

5- عرض البحث والمناقشة والتحليل.

أولاً- الحملات البحرية العربية الإسلامية على جزر حوض البحر المتوسط الشرقي.

1- محاولات فتح جزر قبرص ورودس وأرواد:

تم للمسلمين فتح جزيرة قبرص[1] سنة 28هـ/649م[2]، والتي بفتحها كسب العرب تجارب بحرية جديدة، وكسروا حاجز الخوف من قوة الروم البحرية[3]، والحقيقة أن قصة فتح قبرص تبرهن على تردد العرب وقلقهم من خوض البحار منذ عهد الخليفة عمر بن

(1) **قُبرصُ**: كلمة رومية وافق من العربية القبرس: النحاس الجيد، وهي جزيرة في بحر الروم، في الإقليم الرابع، وهي أولى الجزر التي سيطر عليها المسلمون في البحر المتوسط خلال فترة خلافة عثمان ابن عفان. **الحموي**، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م، مج:4، ص305.

(2) للمزيد عن تفاصيل الحملة لغزو جزيرة قبرص، راجع: **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ/1405م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، ط:1، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م، ج:2، ص575-576. **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت630هـ/1233م): **الكامل في التاريخ**، تح: أبي فداء عبد الله القاضي، الأجزاء:12، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م، ج:2، ص489. **اليافعي**، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/1367م): **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، مراجعة: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م، ج:1، ص71.

(3) **العدوي**، أحمد ابراهيم: **الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت)، ص27.

الخطابﷺ، ويؤكد ذلك ما ذكره الطبري عن طلب معاوية بن أبي سفيان من الخليفة عمرﷺ القيام بغزو الروم، فرفض الخليفة طلبه[1].

إذاً كان للبحر أثراً في اتخاذ الخليفة قراره، فأبى أن يسمح لمعاوية في حمل المسلمين بهذا البحر العظيم لأن الهلاك سيكون محققاً للجيش الذي يعبر من خلاله[2]، وكتب إلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ قائلاً: "فكيف أحمل الجنود في هذا البحر؟ وتالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم؛ فإياك أن تعرض لي.."[3].

ويرجح أن فكرة الرفض كانت بسبب جهل العرب بركوبه، وإحساس الخليفة بالخطر الداهم إذا تم الإبحار من خلاله، لاسيما وأن العرب لم يعتادوا على القيام بغزوات بحرية؛ فكانت تلك العملية عائقاً مبدئياً في وجه الفتوحات إلا أنها ستصبح فيما بعد من الأمور التي يعتاد العرب على القيام بها[4].

وفي سنة (27هـ/648م) كتب معاوية إلى الخليفة عثمان بن عفانﷺ من جديد يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص[5]، فوافق الخليفة عثمان[6].

([1]) **الطبري**، محمد بن جرير(ت310هـ/923م): **تاريخ الرسل والملوك**، تح: أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط:2، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج:4، ص258. **نصر**، محمد إبراهيم: **أضواء على معركة ذات الصواري**، جماعة أنصار السنة المحمدية، مج:8، العدد:2، 1399هـ/1979م، ص29-30.

([2]) **ابن كثير**: **البداية والنهاية**، ج:10، ص228-229.

([3]) **النجار**، عبد الوهاب: **الخلفاء الراشدون**، تح: الشيخ خليل الميس، دار القلم، ط:4، بيروت، لبنان، 1414هـ/1993م، ص291.

([4]) **كينيدي**، هيو: **الفتوح العربية الكبرى** (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه)، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، ط:1، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م، ص447. **محفوظ**، محمد جمال الدين: **أول أسطول بحري في تاريخ المسلمين**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرياض، السعودية، العدد: 288، 1440هـ/1988م، ص53.

([5]) **ابن الأثير**: **الكامل في التاريخ**، ج:2، ص488.

([6]) **البلاذري**، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر(ت279هـ/892م): **فتوح البلدان**، تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م، ق:2، ص208.

ثم كانت سنة (28هـ/649م)[1] وهي السنة التي كان فيها غزو جزيرة **قبرص**[2]، فيها غزا معاوية بن أبي سفيان الجزيرة[3]، ثم أعقبها العديد من الحملات على جزيرتي رودس[4]، وأرواد[5] اللتين تعرضتا للسلب والنهب[6]، فذكرت المصادر أن فتح أرواد كان

([1]) **الدينوري**، أبو حنيفة أحمد ابن حنيفة الدينوري (ت282هـ/896م): **الأخبار الطوال**، تح: محمد سعيد الرافع، مطبعة السعادة، ط:1، مصر، 1330هـ/1912م، ص140.

([2]) **اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، ج:1، ص71.

([3]) **ابن خياط**، خليفة بن خياط (ت240هـ/854م): **تاريخ خليفة بن خياط**، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:2، الرياض، السعودية، 1405هـ/1985م، ص160. **الخضري بك**، محمد: **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية– الدولة الأموية**، تح: الشيخ محمد العثماني، دار القلم، ط:1، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص339.

([4]) **رودس:** من جزائر البحر المتوسط المهمة، وتقع على بعد عشرين ميلاً من شمال قبرص، وعلى مقدار يومين من إبحار القسطنطينية، وبينها وبين الإسكندرية أربعة أيام، وقد افتتحها جنادة بن أمية الأزدي في خلافة معاوية. **البكري**، عبد الله بن عزيز بن محمد (ت487هـ/1095م): **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تح: مصطفى السقا، عالم الكتب، ط:3، بيروت، لبنان، 1403هـ/1982م، ص683. **العسقلاني**، أحمد بن علي بن محمد (ت852هـ/1449م): **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، ج:1، ص607.

([5]) **أرواد:** تقع بالقرب من البحر الشامي، في الجهة الشمالية من طرابلس، وكانت محاولة السيطرة عليها أثناء عودة المسلمين من غزو قبرص، ويذكر أن فتها كان سنة 29هـ/650م. **الحموي: معجم البلدان**، مج:1، ص134. **غلوب**، جون باغوت: **الفتوحات العربية الكبرى**، تر: خيري حماد، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1963م، ص515.

([6]) **كينيدي: الفتوح العربية الكبرى**، ص448–449.

كان سنة 29هـ/650م، أما فتح رودس كان في سنة 53هـ/675م[1]، بقيادة جنادة بن أمية الأزدي[2]، ومن المدهش أن هناك نقش يوناني يؤكد تاريخ تلك الغزوات[3].

ومما سلف يستدل على أنَّ المسلمين بدأوا بالتعود على ركوب البحر، وأن هول البحر لم يمنع العرب المسلمين عن ركوبه، فقاموا بالإكثار من بناء السفن، بعد أن رأوا أنه من الممكن استخدام السفن في الأغراض الهجومية، وفي ذلك يرجع الفضل إلى معاوية بن أبي سفيان بما أنشأه من المراكب والسفن الإسلامية على ساحل بلاد الشام، وأمدها بالسلاح والرجال[4]، وفي الوقت الذي كان فيه معاوية مشغولاً في إنشاء أسطول شامي، كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح[5] منشغلاً في إنشاء أسطول عربي مصري في الجزيرة، وخرج في مائتي سفينة واجتمع بقوات معاوية البحرية[6]، فحصل أول اشتباك

([1]) **البلاذري: فتوح البلدان**، ق:3، ص330.

([2]) **جنادة بن أمية الأزدي** (ت80هـ/699م): قائد بحري، من كبار القادة والغزاة في العصر الأموي، كان قائد غزوات البحر كلها أيام معاوية، ممن شهد فتح مصر، ودخل جزيرة رودس فاتحاً، وتوفي بالشام. **الزركلي**، خير الدين: **الأعلام**– قاموس تراجم، الأجزاء: 8، دار العلم للملايين، ط:15، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج:2، ص140.

([3]) **كينيدي: الفتوح العربية الكبرى**، ص447.

([4]) **الحموي: تاريخ الأسطول العربي**، ص119. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، والأندلس**، ص17. **فهمي**، علي محمود: **التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط** من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي، تر: قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، (د.ت)، ص59.

([5]) **عبد الله بن سعد بن أبي سرح** بن الحارث بن حبيب بن جذيمة بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري، قريش الظواهر، وليس من قريش البطاح، يكنى أبا يحيى، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، أسلم قبل الفتح، غزا إفريقية من أرض السواد، وغزا غزوة الصواري في البحر إلى الروم. **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت630هـ/1233م): **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تح: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج:4، ص260–262.

([6]) **العمري**، عبد العزيز بن ابراهيم: **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، دار إشبيليا، ط:3، الرياض، السعودية، 1421هـ/2001، ص155.

بحري حقيقي بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين في معركة **ذات الصواري**[1] عام (34هـ/654م)[2]، وقد جرت المعركة قبالة ساحل ليكيا في آسيا الصغرى[3]، وانتصر العرب المسلمين في تلك المعركة، وبدأوا بالظهور كقوة بحرية فاعلة ومؤثرة في حوض البحر المتوسط في العصر الراشدي، وثبت لهم التفوق على البيزنطيين، وتحولت العلاقات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين نحو اتجاه جديد في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وبالتالي كان على البيزنطيين أن يضعوا نصب أعينهم استعادة اعتبارهم في المجال البحري، وهذا الأمر لم يغب عن بال الخليفة معاوية[4].

وأدرك المسلمون أنهم أصبحوا قوة بحرية لها خطرها، وأن الموقف الجديد يحتم عليهم انتزاع السيادة من الروم البيزنطيين على البحر المتوسط، وهنا وجه معاوية سياسته البحرية لتقوية الثغور البحرية في مصر والشام، ووجه اهتماماً خاصاً إلى دور الصناعة لبناء الأساطيل، وغيرها من المراكب الخاصة لنقل المؤن والعتاد[5].

([1]) **ذات الصواري:** هي المعركة البحرية التي جرت بين الأسطول العربي الإسلامي بقيادة عبد الله بن أبي سرح، والأسطول البيزنطي بقيادة قسطنطين الثاني، وكانت النتيجة النصر للأسطول الإسلامي وجرح قسطنطين. **ابن خلدون: العبر**، ج:2، ص575.

([2]) **ابن عبد الحكم**، عبد الرحمن بن علي (257هـ/870م): **فتوح أفريقية والمغرب**، تح: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ/2004م، ص217. **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ج:1، ص80.

([3]) **محفوظ**، محمد جمال الدين علي: **معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: 366، 1417هـ/1996م، ص49.

([4]) **طقوش**، محمد سهيل: **تاريخ الدولة الأموية**، دار النفائس، ط:7، بيروت، لبنان، 1431هـ/2010م، 1431هـ/2010م، ص30.

([5]) **ماهر**، سعاد: **البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص313.

2- محاولات فتح القسطنطينية:

بما أن معاوية كان يهتم اهتماماً كبيراً بالتنظيم البحري والاستعداد له، لذلك اتخذ سياسة الغزو البحري، فكانت غزوات الأسطول إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، التي أثبتت أن العاصمة ليست بعيدة عن قبضة البحرية العربية الناشئة وهجماتها، حيث أرسل الخليفة معاوية بن أبي سفيان حملة على القسطنطينية سنة (44هـ/664م)، وكانت هذه الحملة مجهزة بقوات مشتركة برية وبحرية كانت بقيادة بسر بن أرطأة[1]، وتوجهت حتى مياه بحر مرمرة، ولكن الشتاء مع ما يرافقه من اضطراب الأمواج في البحر، وشدة الرياح، والعواصف والأمطار كان له حضوره وأثره، ومع ذلك تمكنت القوات البرية والبحرية من معرفة مفاوز آسيا الصغرى، ومعرفة طريق البحر، وماهي المآخذ التي يمكن من خلالها فرض الحصار على القسطنطينية [2].

وفي سنة (49هـ/669م)[3] تم حشد قوات أعظم، وأسطولاً أضخم سار إلى القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاة الذي استطاع بفضل معرفته السابقة أن يجتاز مضيق هيليس- الدردنيل heles- دون مقاومة، ونقل الجيش إلى الشاطئ الأوروبي على بعد أميال من العاصمة البيزنطية، وكان البحر عاملاً سلبياً بالنسبة لجيش المسلمين خاصة مع اقتراب فصل الشتاء مما كان يجبرهم على ترك الحصار، والتوجه إلى جزيرة

---

(1) **بسر بن أرطأة** (ت86هـ/705م): أبو عبد الرحمن، ولد بمكة قبل الهجرة، وكان من أهم رجال معاوية، ووجهه معاوية إلى المدينة في ثلاثة آلاف سنة (39هـ/659م)، فأخضعها، ثم ولاه البصرة سنة (41هـ/661م)، ثم ولاه البحر، ومات في دمشق. **الزركلي: الأعلام**، ج:2، ص52.

(2) **زيادة**، نيقولا: **لمحات من تاريخ العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص49.

(3) ذكر العمري أنها كانت سنة (48هـ/668م). **العمري: الفتوح الإسلامية عبر العصور**، ص164.

كيزكوس– kezkos–[1]، التي كانت تقع في جنوب بحر مرمرة، وكانت فيها مراكزهم العامة[2].

وفي حصار القسطنطينية سنة (98هـ/717م)[3]، عندما كلف الخليفة سليمان بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك قيادة الحملة البرية، وولى عمر بن هبيرة الفزاري[4] على القوات البحرية، شارك الأسطول المصري في حصار القسطنطينية، حيث كان يحمل المؤن والأسلحة، هذه الغزوة كانت تضم أعظم قوة بحرية استطاعت أن تحشدها دولة إسلامية، فقد كان قوامها نحو 80 ألفاً من الرجال في أسطول كبير يقدر بـ(1800) سفينة، وما يهم هو عامل البحر الذي استغله قائد الأسطول، وقطع علاقات وصلات المدينة في البحر، حيث عصفت بالأسطول الرّيح والموج عصفاً هائلاً، فاصطدمت السفن بعضها ببعض، وأربكت السفن الإسلامية، وفشل الحصار البحري، وهذا ما دفع بالقائد مسلمة إلى سحب الأسطول المرابط في الشاطئ الأوروبي، ريثما يتم تنظيم القوات من جديد وإعادة الحصار، وبالتالي فشل الحصار، وباءت الحملة البحرية بالفشل[5].

---

(1) **كيزكوس:** جزيرة تقع على بعد ثمانين ميلاً من القسطنطينية. **عنان،** محمد عبد الله: **مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام،** الناشر: ورثة المؤلف حسين عنان، ط:5، 1417هـ/1997م، ص37.

(2) **كينيدي: الفتوح العربية الكبرى،** ص451.

(3) **الطبري: تاريخ الرسل والملوك،** ج:6، ص530.

(4) **عمر بن هبيرة الفزاري** (ت نحو 110هـ/728م): أمير من الشجعان، كان من دهاة ورجال أهل الشام، شارك في مقتل مطرف بن المغيرة، ولما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز ولاه الجزيرة، وغزا الروم من ناحية أرمينيا. **الزركلي: الأعلام،** ج: 5، ص68.

(5) **عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام،** ص41. **الجنزوري،** علية عبد السميع: **هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى،** مكتبة الأنجلو مصرية، ط:1، الاسكندرية، مصر، 1405هـ/1985م، ص49.

3- محاولة فتح جزيرة اقريطش[1]:

الدافع الذي ساهم في تجريد الحملات والغزوات على هذه الجزيرة، نفسه دافع تجريد الحملات على جزيرة صقلية وهو محاولة تخليصها من سيطرة بيزنطة[2].

وكان أول من غزاها جنادة بن أمية الأزدي بعد فتح جزيرة أرواد[3] في سنة 54هـ/673م، لكن في هذه الحملة غنم المسلمون وعادوا ولم يستقروا فيها، على الرغم من أن الحميري قد ذكر أن غزوها تم في سنة 29هـ/649م بأسطول مصري[4].

وبقيت الجزيرة دون تحريرها حتى كان عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان (86هـ-96هـ/705-714م) تم توجيه حملة إسلامية ضدها، وتم فتح بعض المناطق فيها ثم عاد المسلمون[5].

ثم تعرضت هذه الجزيرة لعدد من الحملات الأخرى تزامنت مع حصار العرب للقسطنطينية، ومنها تعرض اقريطش لهجوم قام به المسلمون سنة 94هـ/712م[6]، أما ما يمكن ترجيحه أن الحملات توقفت على تلك الجزيرة بسبب انشغال المسلمين في

([1]) **اقريطش:** اقريطش جزيرة في البحر الشامي، وهي جزيرة يونانية في البحر المتوسط، وهي عامرة كثيرة الخصب وبها مدن كثيرة، وطول هذه الجزيرة من الشرق إلى الغرب ثلاثمائة ميلاً وبينها وبين الساحل المصري يوم وليلة، وبينها وبين صقلية تسعمائة ميلاً، وسميت اقريطش لأن أول من سكنها رجل يقال له (قراطي). **الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص51.

([2]) **الخفاجي**، إياد عبد الحسين: **اقريطش ودورها في تثبيت نفوذ الدولة العربية الإسلامية في البحر المتوسط**، كلية التربية، جامعة المستنصرية، العراق، 2003م، ص31.

([3]) **الحموي: تاريخ الأسطول العربي**، ص123.

([4]) **الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص51.

([5]) **الخيرو**، رمزية: **نشاط العرب البحري في البحر المتوسط**، مجلة المؤرخ العربي، العدد:39، 1989م، 1989م، ص132.

([6]) **العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، ص44.

حصار القسطنطينية حتى كان زمن الخليفة العباسي الرشيد (170-193هـ/786-809م)، وتم غزو جزيرة اقريطش سنة (161هـ/775م)[1].

كما قام الأسطول في بلاد الشام بالهجوم على كل من جزيرتي اقريطش وقبرص في عام 194هـ/790م، وهنا اشتركت قوات البحرية البيزنطية في صد الهجوم، ووقعت المعركة في القرب من قبرص، وكان من نتائجها أن توقفت الأعمال البحرية ستة عشر عاماً[2].

وما سلف ذكره يعطي برهاناً على أن البحرية العربية في عصر الدولة الأموية دخلت دوراً جديداً اختلف عن دور الدفاع والحماية إلى دور الهجوم، حيث تحتفظ بعظمتها طوال العصر الأموي وفي صدر العصر العباسي، حتى بدأ الضعف يدب في جسم الدول الإسلامية في الشرق والغرب، فأخذت القوة البحرية بالضعف[3]، وهذا ما سيتم ذكره، ولو طُرح السؤال التالي، كيف الحال بالنسبة للحوض الغربي للبحر المتوسط؟ وكيف كان شكل النشاط البحري؟

ثانياً- الحملات البحرية الإسلامية على جزر حوض البحر المتوسط الأوسط:

من المهم جداً إلقاء الضوء على بداية النشاط البحري للعرب المسلمين في حوض البحر المتوسط الأوسط والغربي كونه فاتحة لأعمال سوف تستمر قروناً عديدة، وعليه يمكن القول: إن العرب المسلمين أدركوا أهمية هذا العامل، وحاولوا استغلاله أيضاً في فتوح الشمال الإفريقي، كما أن تأثيره كان كبيراً في العمليات الحربية التي تمت ضد الروم

([1]) **البلاذري: فتوح البلدان**، ق:3، ص330. **الجنابي**، سعد كاظم: **النشاط العسكري العربي البحري في منطقة حوض البحر المتوسط خلال العهدين الراشدي والأموي**، كلية التربية، جامعة بابل، 1423هـ/2002م، ص80.

([2]) **لويس**، أرشيبالد: **القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص161.

([3]) **حسن**، ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن: **النظم الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص203.

البيزنطيين، فخلال عصر الولاة (45-184هـ/665-800م) في المغرب العربي نشطت البحرية الإسلامية في غزو جزر البحر المتوسط وفرض سيطرتها على الحوض الغربي منه[1]، وبالتالي وجهوا الحملات إلى جزر البحر المتوسط الأوسط، وهي:

1- محاولات فتح جزيرة قوصرة [2]:

حاول المسلمون فتح جزيرة **قوصرة**[3]، وأرسلوا الحملات البحرية بعد أن تم تأسيس أول دار لصناعة السفن في تونس، ولا يستعبد أن يكون السبب في توجيه الحملات إليها هو سبب اقتصادي وذلك لأن جزيرة قوصرة كانت غنية بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن، وبالتالي أرادوا الاستفادة من أجل إمداد دار الصناعة في تونس[4]، فغزا عبد الملك بن قطن الفهري[5] سنة 88هـ/707م[6]، الجزيرة وفتحها، بعد أن تم تدمير القواعد البحرية فيها، لكن الروم البيزنطيين عملوا جاهدين على استعادتها وقد تم لهم ذلك، فتكررت محاولات العرب لانتزاعها، حيث كان ثمة غزو آخر لها في سنة 118هـ/736م

([1]) **العبيدي: النشاط البحري للقادة اليمانيين**، ص81.

([2]) **قوصرة:** اسم يوناني معناه السلة أو السفط أو الزنبيل، وكأن الاسم أطلق عليها للمشابهة فيما بين صورة تلك الجزيرة وبين تلك الأداة، ومن غريب الاتفاق أن الكلمة في اللغة العربية لها المعنى نفسه، وهي جزيرة في البحر المتوسط بين تونس وصقلية. **الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص485. **واصف**، أمين: **الفهرست** (معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية)، مراجعة: أحمد زكي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014م، ج:1، ص1490.

([3]) **فازيليف: العرب والروم**، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص3.

([4]) **الجنابي: النشاط العسكري العربي البحري**، ص96.

([5]) عبد الملك بن قطن بن نفيل بن عبد الله الفهري، تولى ولاية الأندلس الأولى منذ سنة (114هـ/732م) والثانية (122هـ/739م)، وقتل على يد أصحاب بلج بن بشر (132هـ/740م). **الزركلي: الأعلام**، ج:4، ص162.

([6]) **سيسالم**، عصام سالم: **جزر الأندلس المنسية** (التاريخ الإسلامي لجزر البليار 89-685م)، دار العلم للملايين، ط:1، بيروت، لبنان، 1984م، ص50.

على يد حبيب بن أبي عبدة[1]، خوفاً من أن تهاجم القوات الرومية أراضي أفريقية وشواطئها، وتمكنوا من انتزاعها نهائياً من أيدي الروم البيزنطيين في سنة 130هـ/748م، في ولاية الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري، عندما أرسل عبد الرحمن بن حبيب الفهري حملة بحرية سيطرت عليها تماماً، قبل فتح جزيرة صقلية بثلاثة أرباع القرن[2].

وكان لاستيلاء المسلمين على جزيرة قوصرة في عام 130هـ/748م[3] أثراً كبيراً على سياسة المسلمين البحرية تجاه صقلية في العصر العباسي، ولاسيما في عهد الأغالبة الذين اتخذوها قاعدة من أجل شن الغارات البحرية بقصد السيطرة على جزيرة صقلية، وساعدت المسلمين بموقعها المنيع على الاحتماء بقلعتها والتحصن بموقعها المنيع[4].

وفي عصر الأغالبة قاموا بإرسال غزواتهم إليها، فكيف تم ذلك والمعلوم أن الجزيرة كانت بيد المسلمين منذ عام 130هـ/748م؟

الإجابة على ذلك ذكرها ابن خلدون حيث قال: "ومنها كان فتح صقلية في أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات، وفتح **قوصرة** أيضاً في أيامه"[5]، وهذا ما يدل على قيام الأغالبة بعمل بحري جهادي فيما يخص جزيرة قوصرة على الرغم من سكوت المصادر عن ذكر هذا العمل، وهذا ما أيده أرشيبالد لويس بقوله: "وسرعان ما قوي شأن هذه القاعدة البحرية بفضل ما استجد من تطورات كان أولها استيلاء أسطول الأغالبة على جزيرة قوصرة 221هـ/835م"[6].

([1]) **طرخان**، إبراهيم علي: **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1966م، ص98.

([2]) **الجنابي: النشاط العسكري العربي البحري**، ص96.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص39.

([4]) **عبد الوهاب**، حسن حسني : **قصة جزيرة قوصرة العربية**، المجلة التاريخية المصرية، مج:2، العدد: 2، القاهرة، مصر، (د.ت)، ص59.

([5]) **ابن خلدون: المقدمة**. ص211.

([6]) **لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، ص213.

أي أن الجزيرة بعد فتحها عام 130هـ/748م عادت إلى الروم البيزنطيين، ومن ثم قام الأغالبة باسترجاعها عام 221هـ/835م، واتخذوها قاعدة للعمل البحري ضد صقلية التي لم تكن قد فتحت بالكامل، ومناطق جنوب إيطاليا، وزال بالاستيلاء على هذه الجزيرة الخطر الذي كان يهدد المواصلات بين كل من صقلية وأفريقية عندما كانت قوصرة بيد بيزنطة، وأصبح وصول الإمدادات أسهل بكثير من ذي قبل[1].

2- محاولات فتح جزيرة صقلية:

برزت أهمية جزيرة صقلية كونها ذات موقع جغرافي مهم بين الساحل الأفريقي والإيطالي، وموقعها شرقي الأندلس في عرض البحر[2]، وتشكل مفتاحاً لحوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي، فكانت ميداناً للتنافس والصراع بين القوى البحرية في المتوسط[3]، وعلى الرغم من أنها هدفاً للغارات البحرية الإسلامية، لم يكتب للمسلمين السيطرة عليها وضمها إلى ولاية شمال أفريقية إلا في عهد الأغالبة، حيث امتلكوها بعد حروب طويلة مع البيزنطيين استمرت قرناً بأكمله[4]، فماهي الحملات العربية الإسلامية التي وجهت إلى جزيرة صقلية قبل أن يتم فتحها بشكل منظم ورسمي؟

لابد من العودة إلى ما قبل فترة ظهور الأغالبة، لتوضيح أهمية جزيرة صقلية بالنسبة للمسلمين، لاسيما أن الروم جعلوها قاعدة لأساطيلهم يهاجمون منها المسلمين في شمال أفريقية[5]، ومن هذا المنطلق يبدو أن جزيرة صقلية أصبحت قاعدة لتجمع قوات

([1]) **لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، ص213.

([2]) **ابن حوقل النصيبي**، أبو القاسم محمد بن علي (ت376هـ/977م): **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص113.

([3]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص55.

([4]) **نوح**، فوزية محمد عبد الحميد: **البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184-296هـ/800-908م**، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، 1405هـ/1985م، ص113.

([5]) **أحمد**، نهلة شهاب: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 2009م، ص11.

الأسطول الرومي التي انسحبت من قواعدها من الشام ومصر بعد الفتح العربي[1]، ومركزاً تتحين منه الفرص للإطباق على الأسطول العربي وشل نشاطه، ومن هنا بدأت الحملات الموجهة ضد هذه الجزيرة لتحقيق الهدف بإقصاء الروم وبث الرعب في نفوسهم، ومنعهم من تحقيق أهدافهم[2].

غزاها عبد الله بن قيس الفزاري[3] من قبل **معاوية بن حديج**[4] من أفريقية في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 46هـ/666م، حيث تم إرسال مائتي سفينة، وعند عودتها كانت محملة "أصناماً من ذهب وفضة مكللة بالجواهر" يحتمل أنها أخذت من كنائس الجزيرة، وغنم المسلمون غنائم عظيمة في هذه الغزوة، إلا أن بعض الباحثين لا يؤكد وقوع هذه الغزوة، وبرهانهم في ذلك أن الإمكانيات البحرية التي تؤهل المسلمين لإرسال مثل هذه الحملة لم تكن قد اكتملت بعد[5].

ولم تتوقف الغارات العربية البحرية؛ وتوالت غارات الأسطول العربي على جزيرة صقلية بقصد السيطرة عليها، فكانت تخرج وحدات الأسطول من الشام، أو من مصر، حتى أضعفوا الأسطول الرومي، ولم يعد يقوى على المقاومة[6]، وفي ولاية حسان بن النعمان، أحرز الأسطول الإسلامي نصراً كبيراً على الأسطول البيزنطي بقيادة البطريق

([1]) **مورينو**، مارتينو ماريو: **المسلمون في صقلية**، منشورات الجامعة اللبنانية، ط:2، بيروت، لبنان، 1968م، ص7.

([2]) **العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، ص30-31.

([3]) **عبد الله بن قيس الفزاري:** ويقال الأنصاري، ولاه معاوية بن أبي سفيان غزو البحر، وغزا ما يقارب خمسين غزوة. **العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة**، ج:5، ص74.

([4]) **معاوية بن حديج:** يكنى أبا عبد الرحمن، غزا أفريقية ثلاث مرات، وأصيبت عينه في إحداها، توفي في مصر. **ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ج:5، ص199.

([5]) **بيضون**، إبراهيم: **الدولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط غرناطة 92-422هـ/711-1031م**، دار النهضة العربية، ط:3، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص36. **مؤنس**، حسين: **فجر الأندلس**، دار الرشاد، ط:4، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م، ص42.

([6]) **العدوي: الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، ص32.

جان، الذي نزل على ساحل أفريقية في سنة 79هـ/698م، حيث انهزم الروم، وفر من نجا منهم عبر مراكبه إلى صقلية[1].

ولما أصبح للمغرب العربي والإسلامي أسطوله الخاص، كانت من أوائل الحملات التي ساهم فيها الأسطول العربي المغربي ضد جزيرة صقلية حملة **عبد الله بن موسى بن نصير**[2] في سنة 85هـ/704م[3]، بلغ عدد المسلمون فيها ما بين التسعمائة والألف، ونزلوا على أرض الجزيرة، فدحروا القوات الرومية وعادوا بمغانم كثيرة، وقد سميت هذه الغزوة **بغزوة الأشراف**[4]، وافتتحوا إحدى مدنها، فكانت أول غزوة بحرية من السواحل الأفريقية[5].

([1]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص27.

([2]) شارك والده في الكثير من الفتوح، وقد استخلفه والده على أفريقية عندما عبر إلى الأندلس، قتل على يد الوالي الجديد بشر بن صفوان سنة 102هـ/720م. **ابن عبد الحكم: فتوح أفريقية والمغرب**، ص240.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، ص101.

([4]) **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م): **الإمامة والسياسة**، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م، ج:2، ص235.

([5]) **ابن شباط**، محمد بن علي بن محمد (ت681هـ/1282م): **وصف الأندلس من كتاب صلة السمط وسمة المرط**، ملحق بكتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، تح: أحمد مختار العبادي، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص186.

وغزا **عياش بن أخيل**[1] بأسطول المغرب جزيرة صقلية عام 86هـ/705م، حيث أغار على مدينة **سرقوسة**[2]، وشتا في البحر، وعاد محملاً بالغنائم، وبهذه الغارات استطاع موسى أن يأمن جانب البحر وأن لا يقع فيما وقع به عقبة بن نافع وزهير بن القيس منذ عشرين سنة مضت، وعليه كان تحركه باتجاه المغرب مكللاً بالنصر[3].

تابع الولاة بعد موسى بن نصير سياسة الجهاد ضد الروم البيزنطيين، فهوجمت صقلية سنة 102هـ/720م حيث تحركت ضد هذه الجزيرة حملة بحرية لكن الحملة فشلت بسبب الأحداث التي جرت في أفريقية ومقتل الوالي على يد البربر[4]، وهذا ما أشار إليه الدوري بقوله: "ومن هنا نلحظ أن أحوال البيزنطيين في صقلية والمسلمين في أفريقية كان لها أثراً كبيراً في قيام الغزوات العربية في صقلية وفي فشلها أيضاً"[5].

([1]) **عياش بن أخيل:** ذكره ابن الفرضي باسم عياش بن أجيل، حيث قال (ذكر في تاريخ المصريين: عياش بن أجيل، وقال أبو سعيد في سنة مائة قدم عياش بن أجيل من الأندلس بالسفن إلى أفريقية. **ابن الفرضي،** أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ/1012م): **تاريخ علماء الأندلس،** تح: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط:1، تونس، 1429هـ/2008م، ج:1، ص441.

([2]) **سرقوسة:** عاصمة جزيرة صقلية، وأكبر مدنها، وتحيط بها المياه من جميع جهاتها، فيها أسواق كبيرة، وحمامات، وخانات، وتنقل منها البضائع التجارية إلى سائر البلدان. **الإدريسي،** أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف السبتي (ت560هـ/1166م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،** مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر،1422هـ/2002م، ج:2، ص598.

([3]) **لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط،** ص102.

([4]) **ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط،** ص324.

([5]) **الدوري،** تقي الدين عارف: **صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العرب حتى حتى الغزو النورمندي،** وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، 1980م، ص27.

كما غزاها عامل أفريقية سنة 109هـ/728م[1]، وفي سنة 110هـ/729م أرسلت حملتين الأولى حققت نجاحاً، وأسر قائد البيزنطيين[2]، والثانية سنة 111هـ/729م، وبعودتها غرقت معظم سفنه بسبب العواصف وثوران البحر، ولم تنقطع الحملات الإسلامية على جزيرة صقلية فيما يلي من سنوات[3].

ولم يترتب على سقوط الخلافة الأموية وفي السنوات الأولى من قيام الخلافة العباسية أي تحول لدى سياسة مسلمي أفريقية تجاه الشطر الغربي من المتوسط، فتم غزوا الجزيرة سنة 135هـ/753م، فعمر الروم البيزنطيون الحصون والمعاقل حول الجزيرة، ولم يتركوا جبلاً إلا أقاموا عليه حصناً، ما يدل على أن هذه الغزوة نبهت البيزنطيين إلى مخاطر استيلاء المسلمين على الجزيرة، ثم توقف النشاط البحري الإسلامي مدة من الزمن من سنة 135هـ/732م وحتى 184هـ/800م[4]، بسبب انشغال ولاة أفريقية بالفتن مع البربر، وبالتالي تمهد الطريق لفتح جزيرة صقلية، بعد أن تم التعرف على أهمية تلك الجزر ومعرفة قواعدها، ومقدار الحصينات الرومية فيها، فتم فتح جزيرة صقلية التي صمم الأغالبة على فتحها وضمها إلى ولاية شمال إفريقية، كونها مركز تحصن الروم البيزنطيين في ذاك الوقت، لاسيما أن الدولة البيزنطية كانت في وضع داخلي مضطرب بسبب ثورة توماس الصقلبي 205-208هـ/820-823م[5]، مما مما سهل عليهم المهمة بشكل نسبي.

([1]) **الجنابي: النشاط العسكري العربي البحري**، ص87.

([2]) **أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص11.

([3]) **ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط**، ص345-346.

([4]) **مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها ببلاد المشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ص73.

([5]) **توماس:** أحد قادة جيش الروم، وكان قد هرب إلى العرب في عهد هارون الرشيد العباسي، وقد عقد معه الخليفة المأمون اتفاقاً، وفي سنة 205هـ/820م كان توماس قد استطاع أن يخترق أرمينيا وأن يضم غالبية المقاطعات العسكرية في أسيا الصغرى إليه، وبدأ يستعد للمسير إلى القسطنطينية، ولم يستطع الإمبراطور البيزنطي من القضاء عليه إلى في سنة 208هـ/823م. **الجنزوري: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى**، ص52.

3- محاولات فتح جزيرة مالطة[1]:

البدايات الأولى لفتح جزيرة مالطة تزامنت مع محاولات الأغالبة فتح جزيرة صقلية، فكان التخلص من قواعد الروم حلماً قضَّ مضجعهم؛ كما أن جزيرة مالطة تعرضت لعدد من الحملات الإسلامية عليها قبل عام 184هـ/800م أي قبل عصر الأغالبة، إلا أن السيادة الإسلامية لم تثبت، وتكرر غزوها فيما بعد[2].

ففي سنة 209هـ/824م، كان ثمة غزوة إسلامية لجزيرة مالطة[3]، كما حدثت غزوة إسلامية أخرى في سنة 221هـ/835م حيث جهز والي صقلية أسطولاً سيره نحو الجزيرة؛ فغنموا غنائم عظيمة، وفتحوا مدناً ومعاقل، وعادوا سالمين[4].

وفي رسالة المستشرق الإيطالي **إيطوري روسي** الذي يعد من أعلم المستشرقين بأحوال مالطة، ذكر أن العرب نزلوا مالطة سنة 256هـ/869م، وأن أبا الأغلب إبراهيم غزا جزيرة صقلية عام 221هـ/835م، وأن من غير المعقول أن يكون قد استولى على جزيرة صقلية وترك جزيرة مالطة الأقرب إلى أفريقية من صقلية؛ فمن ناحية التفكير السليم يكون الاستيلاء عليها قد وقع قبل عام الاستيلاء على جزيرة صقلية؛ إذاً حاول أن يقدم دليلاً على أن احتلال الجزيرة كان قبل عام 256هـ/869م، وبالتالي فإن الحملات كانت

([1]) وتعرف جزيرة مالطة ولواحقها بالأرخبيل المالطي، نظراً لأنها أهم أجزاء هذا الأرخبيل، ومن لواحقها جزيرة جوتزو، وكمونة، وكومينوتو، وفلفولا، ونموشة، وقد عدت هي وجزيرة صقلية من المعالم المهمة في التاريخ البحري الإسلامي، ومفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي. **أرسلان**، شكيب: **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص120.

([2]) **طرخان: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، ص100.

([3]) **مؤنس**، حسين: **الإسلام في حوض البحر الأبيض**، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مصر، مج:4، العدد: 1، 1951م، ص113.

([4]) **نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة**، ص280.

مجرد غارات لم تحقق هدفها في مد السيطرة الإسلامية عليها بشكل نهائي، حتى عصر الأغالبة[1].

ثالثاً- الحملات البحرية العربية الإسلامية على جزر حوض البحر المتوسط الغربي:

1- محاولات فتح جزيرة سردانية[2]:

توالت الغزوات الإسلامية على جزيرة سردانية، لضمها إلى أملاك المسلمين مما يدل على أهميتها الكبيرة بالنسبة إليهم، ولكن هل تم لهم ذلك؟

تم غزو الجزيرة للمرة الأولى سنة 84هـ/703م[3]، بقيادة الغزوة عطاء بن رافع الهذلي[4] على رأس الأسطول المصري قاصداً الجزيرة، ونزلوا على عاصمة الجزيرة (سلسلة)[5] وافتتحها، وبعودتهم أصابتهم رياح عاصفة أدت إلى غرق كثير منهم قرب الساحل الإفريقي، وهلك القسم الأكبر من أسطوله، كما أرسلت حملات تفتيشية من أجل

([1]) **أرسلان: تاريخ غزوات العرب**، ص303.

([2]) **سردانية:** جزيرة في بحر المغرب كبيرة، ليس هناك بعد جزيرة الأندلس وصقلية واقريطش أكبر منها، غزاها المسلمون وملكوها عام 92هـ في عسكر موسى بن نصير، وذكر بعضهم أنها مدينة بصقلية. **الحموي: معجم البلدان**، ج:3، ص209.

([3]) ذكر الدكتور سالم عبد العزيز أنه من الخطأ الاعتقاد أن الغزوة حدثت في عام 84هـ/703م، ويذكر تفصيلاً يؤكد أن الغزوة تمت في عهد الوالي حسان بن النعمان نقلاً عن رواية ابن قتيبة. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص27.

([4]) **عطاء بن رافع الهذلي:** مولى هذيل، أمير بحر قاد الحملة إلى جزيرة سردانية، وتعرضت مراكبه إلى عاصفة أدت إلى غرق أسطوله، ومات غريقاً في البحر. **ابن عبد الحكم: فتوح أفريقية والمغرب**، ص236.

([5]) لعلها صقلية على حد تعبير السيد عبد العزيز سالم. **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في الأندلس والمغرب**، ص27.

إنقاذ الجنود الذين نجوا من الغرق، وأدخلت السفن المتضررة إلى دار الصناعة في تونس لإصلاحها[1].

وفي سنة 87هـ/706م، أرسل موسى بن نصير حملتين على سردانية فغنموا وأصابوا[2]، كما خرج **عبد الله بن مرة** على رأس حملة بحرية طرقت جزيرة سردانية سنة 89هـ/708م، فدخل مدنها، ونكل بحاميتها وعادت القوة في نفس السنة بسلام[3].

وازداد عدد الحملات على الجزيرة بعد فتح العرب للأندلس، لأنها أصبحت تقع بين القواعد البحرية في المغرب العربي وساحل الأندلس الشرقي[4]، ولم يخلو عهد الولاة بالمغرب من تكرار الحملات التي كانت وجهتها إلى الجزيرة، ففي سنة 117هـ/735م تم غزوها وأصابوا قرية منها، كما تكرر غزوها سنة 119هـ/737م، وهاجموا فيها إحدى قلاع الجزيرة وافتتحوها، لكن في طريق العودة غرق بعض سفن المسلمين ونجا البعض الآخر[5]، فهل كان ثمة أسطولاً بيزنطياً اعترض طريقهم وجرت بينهم معركة بحرية خسروا فيها، أم أنه بفعل الطبيعة؟

وفي سنة 135هـ/752م قام **عبد الرحمن بن حبيب الفهري**[6] بغزوها أثناء عودته من من غزو جزيرة صقلية، وصالح أهلها على أن يدفعوا جزية سنوية له، بعد ذلك توقف النشاط البحري الإسلامي مدة من الزمن عمد الروم البيزنطيين خلالها إلى تحصين الجزيرة بالقلاع، حتى ظهر الأغالبة على مسرح الحياة السياسية، وانتعش النشاط البحري من جديد، فقاموا بغزوها[7].

([1]) **ابن قتيبة: الإمامة والسياسة**، ج:2، ص234.

([2]) **ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط**، ص300.

([3]) **سيسالم: جزر الأندلس المنسية**، ص52.

([4]) **أحمد: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، ص14.

([5]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص39.

([6]) **نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة**، ص47-286.

([7]) **سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص123.

2- محاولات فتح جزر البليار[1](ميورقة ومنورقة ويابسة).

أدرك العرب المسلمين أهمية هذه الجزر، ولم يتوانوا عن إرسال الحملات من أجل ضمها إلى أملاك الدولة الإسلامية؛ فتم إرسال المقاتلة لغزو تلك الجزر، وكانت أوائل الحملات مع بداية نشأة الأسطول العربي الإسلامي في تونس سنة 84هـ/703م، حيث ساهم الأسطول العربي المغربي واستطاعوا دحر القوات الرومية وعادوا بمغانم كثيرة[2].

والمتأمل في خارطة حوض البحر الأبيض المتوسط يدرك أهمية هذه الجزر بالنسبة لبلاد الأندلس، وبالتالي فإن التفكير في فتح الأندلس اقترن مع محاولة فتح هذه الجزر، ومع وجود موسى بن نصير الذي أدرك بما عرف عنه من خبرة بشؤون البحر، ما تشكله تلك الجزر من خطر على استقرار دعائم الحكم، وما تمثله من عوائق خطيرة تقف عثرة في سبيل تحقيق أهدافه الكبرى[3]، وبالتالي أقدم على افتتاح الأندلس 92هـ/711م بعد أن شل حركة الأسطول البيزنطي، وضمن سلامة مواصلاته من خطرهم، فأرسل طارق حتى أتى على ساحل طنجة وعبر إلى الأندلس[4].

([1]) جزر البليار تابعة للأندلس منذ القديم، وهي أكبر جزر الأندلس بالبحر الرومي، وتعرف هذه الجزر الثلاثة باسم جزر البليار، وتتدرج في المساحة، وتقع في حوض المتوسط الغربي شرقي مدينة بلنسية في الأندلس، لذلك عرفت باسم الجزائر الشرقية، أكبرها جزيرة ميورقة، وأوسطها منورقة' وأصغرها يابسة، والمسافة فيما بين ميورقة ومنورقة لا تتجاوز الخمسين ميلاً، ومما لا شك فيه أن أهم هذه الجزر جزيرتا ميورقة ومنورقة، وكانت تلك الجزر بمثابة واجهة تحمي شواطئ الأندلس الشرقية. **الحموي: معجم البلدان**، ج:5، ص216-246-424. **الزهري**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن 6هـ/12م): **كتاب الجغرافية**، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د.ت)، ص128-130.

([2]) هي حملة عبد العزيز بن موسى بن نصير وقد عاد مظفراً فيها. **تشركوا**، كيليليا سارنلي: **مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري**، لجنة البيان العربي، ط:1، القاهرة، مصر، 1961م، ص187.

([3]) **سيسالم: جزر الأندلس المنسية**، ص47.

([4]) **ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط**، ص304.

3- محاولات فتح شبه جزيرة الأندلس:

منذ أن وجه موسى بن نصير حملاته إلى جزر البحر المتوسط الغربي، اتجه بأنظاره إلى شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس)، استكمالاً لسياسة الفتوحات ولبسط السيادة الإسلامية على البحر الأبيض المتوسط، إذ أن فتحها كان من الضرورات العسكرية والدفاعية لتأمين الفتح الإسلامي للمغرب[1]، فأرسل مولاه **طريف بن مالك** لغزو الأندلس في سنة (92هـ/711م) على رأس حملة بحرية قوامها أربعمائة راجل ومائة فارس، واستولت على شبه الجزيرة الصغيرة في جنوب الأندلس، كما سميت الجزيرة باسمه لنزوله فيها باسم "جزيرة طريف"، حيث نزل على الجزيرة الخضراء[2]، ونجح في مهمته، ولما كانت الأخبار مشجعة، توجه طارق بن زياد في سنة 92هـ/711م في حملة منظمة لفتح الأندلس، فعبر البحر في سفن كانت معدة في تونس[3]، عدا السفن الأربعة التي قدمها يوليان حاكم سبتة[4]، وعسكر بهم في جزيرة طريف، والمهم هو

([1]) **أحمد: تاريخ المغرب العربي**، ص114. **طه**، عبد الواحد ذنون، وآخرون: **تاريخ المغرب العربي**، دار المدار، ط:1، بيروت، لبنان، 2004م، ص114.

([2]) **الجزيرة الخضراء:** مدينة مشهور بالأندلس، على البحر المتوسط، وقبالتها من بلاد البربر سبتة، من أشرف المدن وأطيبها أرضاً، وسورها يضرب به ماء البحر، ومرساها من أجود المراسي للجواز، وأقربها من البحر الأعظم، وتسمى أيضاً جزيرة "أم حكيم". **الحموي: معجم البلدان**، مج:2، ص136. **الحميري**، محمد عبد المنعم (ت900هـ/1496م): **صفة جزيرة الأندلس** منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط:2، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م، ص73.

([3]) **ابن حبيب**، عبد الملك (ت238هـ/949م): **كتاب التاريخ**، اعتنى به: عبد الغني مستو، المكتبة العصرية، ط:1، بيروت، لبنان، 1429هـ/2008م، ص134.

([4]) **سبتة:** شبه جزيرة صغيرة مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلى مضيق جبل طارق الذي كان يعرف عند القدماء ببحر الزقاق، وشبهها الجغرافيون لكونها داخلة في البحر من برزخها الذي يصلها ببر المغرب من الجنوب بأنها "كف عل زند"، وهي عبارة عن سبعة جبال صغار متصل بعضها ببعض، طولها من المغرب إلى المشرق نحو الميل وهي من موقعها تقابل الجزيرة الخضراء، لا يفصلها عنها سوى ثمانية عشر ميلاً، وهي أقرب نقطة من المغرب إلى الأندلس. **السبتي**، محمد بن القاسم الأنصاري:

دور الأسطول العربي الإسلامي الذي كان قد تم إنشاؤه في بلاد المغرب، هل كان له أثر في عملية الفتوح التي تمت لبلاد الأندلس؟

كان للأسطول أثراً وإن لم يكن مباشر لأن عمليات فتح وتحرير الأندلس كانت عمليات برية ولم تكن بحرية، فظهر هذا الأثر في حماية خطوط المواصلات الطويلة مع الشمال الإفريقي، وإمدادهم بالمؤن والمواد اللازمة، ومن ذلك أنه لما استدعى قوات إضافية أمده القائد موسى بن نصير بحملة كان قوامها خمسة آلاف فكيف تم ذلك لولا الأسطول الذي نفذ تلك المهمة؟[1]، وبالتالي تم اختراق مركز الدفاع والهجوم البيزنطي[2]، وامتد الفتوحات حتى شمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وهذا ما جعل القوى البحرية الإسلامية تسيطر على ثلث شواطئ المتوسط بين الرون وأرمينية[3].

6- خاتمة البحث ونتائجه:

من خلال ما تقدم فإن أهم العوامل التي لا يمكن إغفالها في مجال تاريخ البحرية العربية الإسلامية هو إنشاء الأسطول لدى الدول التي قامت وتعاقبت على اختلاف مراحلها، هذا الأسطول الذي ساهم في العلاقات الحربية العسكرية والتجارية بين بلاد الإسلام بشكل عام من جهة، وفيما بين بلاد المسيحية والعالم الأوروبي من جهة أخرى.

كما يلاحظ أن خلافة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) وابنه الوليد (86-96هـ/705-715م) استغل المسلمون البحر، وأتموا فتح المغرب إلى طنجة وجزء

اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط:2، الرباط، المغرب، 1403هـ/1983م، ص5.

([1]) **نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة**، ص42.

([2]) **لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، ص104.

([3]) **نوح: البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة**، ص45.

من جنوب فرنسا، فأصبحت أجزاء كبيرة جداً من ساحل البحر المتوسط في أيدي المسلمين، وأصبحت تونس ميناءً جديداً حلَّ محل قرطاجة، واهتموا بالسواحل والأساطيل، وأنشأوا الأربطة على السواحل، وما يهم أن لهذا الأمر أثره الكبير، فقد غدا الساحل الشمالي لبلاد المغرب والساحل الشرقي للأندلس مركزين للقيام بالأعمال التجارية والأنشطة البحرية، وعمرت السواحل والموانئ، ودبت الحياة في حوض المتوسط.

ويجب التأكيد أن تلك الأعمال البحرية كانت ضمن تخطيط منظم يقوم على سياسة واعية وهادفة منذ قيامها كما أثبتت الدراسات أن سياسة الدولة الأموية كانت واعية بضرورة إعداد أسطول قوي ومدرب للتغلب على البيزنطيين، وأن فتح الأمويين لشمال أفريقية وشبه جزيرة أيبيريا لم يكن إلا جزءاً من مخطط طويل المدى يهدف لإضعاف العالم البيزنطي، وحرمانه من موارده الاقتصادية، وعلى ضوء ذلك يجب تفسير حملات المسلمين على جزر البليار وبقية جزر الحوض الغربي للبحر المتوسط وفقاً لخطة محكمة الحلقات، مهدت لها عدة عوامل أساسية".

7- قائمة المصادر العربية.

1- **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت630هـ/1233م): **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تح: علي محمد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

2- **ابن الأثير**، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم (ت630هـ/1233م): **الكامل في التاريخ**، تح: أبي فداء عبد الله القاضي، الأجزاء:12، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م.

3- **الإدريسي**، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الشريف السبتي (ت560هـ/1166م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر،1422هـ/2002م.

4- **البكري**، عبد الله بن عزيز بن محمد (ت487هـ/1095م): **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تح: مصطفى السقا، عالم الكتب، ط:3، بيروت، لبنان، 1403هـ/1982م.

5- **البلاذري**، أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر(ت279هـ/892م): **فتوح البلدان**، تح: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1407هـ/1987م.

6- **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت).

7- **ابن حبيب**، عبد الملك (ت238هـ/949م): **كتاب التاريخ**، اعتنى به: عبد الغني مستو، المكتبة العصرية، ط:1، بيروت، لبنان، 1429هـ/2008م،

8- **الحموي**، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لبنان، 1397هـ/1977م.

9- **الحميري**، محمد عبد المنعم (ت900هـ/1496م): **صفة جزيرة الأندلس** منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: ليفي بروفنسال، دار الجيل، ط:2، بيروت، لبنان، 1408هـ/1988م.

10- **ابن حوقل النصيبي**، أبو القاسم محمد بن علي (ت376هـ/977م): **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.

11- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت808هـ/1405م): **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، ط:1، بيروت، لبنان، 1401هـ/1981م.

12- **ابن خياط**، خليفة بن خياط (ت240هـ/854م): **تاريخ خليفة بن خياط**، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:2، الرياض، السعودية، 1405هـ/1985م.

13- **الدينوري**، أبو حنيفة أحمد ابن حنيفة الدينوري (ت282هـ/896م): **الأخبار الطوال**، تح: محمد سعيد الرافع، مطبعة السعادة، ط:1، مصر، 1330هـ/1912م.

14- **الزهري**، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت أواسط القرن 6هـ/12م): **كتاب الجغرافية**، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د.ت)،

15- **السبتي**، محمد بن القاسم الأنصاري: **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط:2، الرباط، المغرب، 1403هـ/1983م.

16- **ابن شباط**، محمد بن علي بن محمد (ت681هـ/1282م): **وصف الأندلس من كتاب صلة السمط وسمة المرط**، ملحق بكتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، تح: أحمد مختار العبادي، مطبعة الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.

17- **الطبري**، محمد بن جرير(ت310هـ/923م): **تاريخ الرسل والملوك**، تح: أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، ط:2، القاهرة، مصر، (د.ت).

18- **ابن عبد الحكم**، عبد الرحمن بن علي (257هـ/870م): **فتوح أفريقية والمغرب**، تح: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1425هـ/2004م،

19- **العسقلاني**، أحمد بن علي بن محمد (ت852هـ/1449م): **الإصابة في تمييز الصحابة**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م.

20- **ابن الفرضي**، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت403هـ/1012م): **تاريخ علماء الأندلس**، تح: بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، ط:1، تونس، 1429هـ/2008م.

21- **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م): **الإمامة والسياسة**، تح: خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.

22- **اليافعي**، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت768هـ/1367م): **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، مراجعة: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 1417هـ/1997م.

8- قائمة المراجع العربية والدوريات.

1- أحمد، نهلة شهاب: **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، دار الكتب العلمية، ط:1، بيروت، لبنان، 2009م،

2- بيضون، إبراهيم: **الدولة العربية في إسبانية من الفتح حتى سقوط غرناطة 92-422هـ/711-1031م**، دار النهضة العربية، ط:3، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م،

3- الجنزوري، علية عبد السميع: **هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو مصرية، ط:1، الاسكندرية، مصر، 1405هـ/1985م،

4- حسن، ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن: **النظم الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت)،

5- حسونة، محمد أحمد: **أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية**، دار نهضة مصر للطبع والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، مصر، 1380هـ/1960م،

6- الخربوطلي، علي حسني: **الإسلام في حوض البحر المتوسط**، دار العلم للملايين، ط:1، بيروت، لبنان، 1970م،

7- الخفاجي، إياد عبد الحسين: **اقريطش ودورها في تثبيت نفوذ الدولة العربية الإسلامية في البحر المتوسط**، كلية التربية، جامعة المستنصرية، العراق، 2003م،

8- الخيرو، رمزية: **نشاط العرب البحري في البحر المتوسط**، مجلة المؤرخ العربي، العدد:39، 1989م،

9- الدوري، تقي الدين عارف: **صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العرب حتى الغزو النورمندي**، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، 1980م،

10- سالم، عبد العزيز و**العبادي**، أحمد مختار: **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1969م،

11- سيسالم، عصام سالم: **جزر الأندلس المنسية** (التاريخ الإسلامي لجزر البليار 89-685م)، دار العلم للملايين، ط:1، بيروت، لبنان، 1984م،

12-الزركلي، خير الدين: **الأعلام**- قاموس تراجم، الأجزاء: 8، دار العلم للملايين، ط:15، بيروت، لبنان، (د.ت)،

13- زيادة، نيقولا: **لمحات من تاريخ العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د.ت)،

14- **طالب**، علي: **دور العامل الجغرافي الطبيعي في أهم المعارك العسكرية** منذ صدر الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي (1–132هـ)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سورية، 1441هـ/2020م،

15-**طرخان**، إبراهيم علي: **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، مصر، 1966م،

16-**طقوش**، محمد سهيل: **تاريخ الدولة الأموية**، دار النفائس، ط:7، بيروت، لبنان، 1431هـ/2010م،

17- . **طه**، عبد الواحد ذنون، وآخرون: **تاريخ المغرب العربي**، دار المدار، ط:1، بيروت، لبنان، 2004م،

18-**عبد الوهاب**، حسن حسني : **قصة جزيرة قوصرة العربية**، المجلة التاريخية المصرية، مج:2، العدد: 2، القاهرة، مصر، (د.ت)،

19-**العدوي**، أحمد ابراهيم: **الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط**، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، مصر، (د.ت)،

20-**العمري**، عبد العزيز بن ابراهيم: **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، دار إشبيليا، ط:3، الرياض، السعودية، 1421هـ/2001،

21-**مؤنس**، حسين: **فجر الأندلس**، دار الرشاد، ط:4، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م،

22-**محفوظ**، محمد جمال الدين: **أول أسطول بحري في تاريخ المسلمين**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرياض، السعودية، العدد: 288، 1440هـ/1988م،

23-**محفوظ**، محمد جمال الدين علي: **معركة ذات الصواري البحرية تحقيق موقعها**، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد: 366، 1417هـ/1996م،

24-**نصر**، محمد إبراهيم: **أضواء على معركة ذات الصواري**، جماعة أنصار السنة المحمدية، مج:8، العدد:2، 1399هـ/1979م،

25-**نوح**، فوزية محمد عبد الحميد: **البحرية الإسلامية في بلاد المغرب في عهد الأغالبة 184–296هـ/800–908م**، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، 1405هـ/1985م،

26- **واصف**، أمين: **الفهرست** (معجم الخريطة التاريخية للمالك الإسلامية)، مراجعة: أحمد زكي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014م.

9- قائمة المراجع المعربة:

1- **تشركوا**، كيليليا سارنلي: **مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري**، لجنة البيان العربي، ط:1، القاهرة، مصر، 1961م، ص187.

2- **غلوب**، جون باغوت: **الفتوحات العربية الكبرى**، تر: خيري حماد، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1963م،

3- **فازيليف: العرب والروم**، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)،

4- **كينيدي**، هيو: **الفتوح العربية الكبرى** (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه)، تر: قاسم عبده قاسم، المركز القومي للترجمة، ط:1، القاهرة، مصر، 1429هـ/2008م،

5- **لويس**، أرشيبالد: **القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط**، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، (د.ت).

- List of sources and references in Arabic:

1. IBN AL-ATHEER. A - **Alkamel fi alttarikh.** Dar Al-tebaeah, Alqahira, 1871.
2. IMAM. M- **Nuzm alhkumah alaslamiuh fi alaindils fi eahd bani aumyh khilal alfatrih 138-336 ah**. Jamieat Umm al Qura, Makkah, Almamlakah alarabeah alsaeudiah, 1994.
3. HASSAN. Ibrahim wa Ali Abrahim Hassan- **Alnazam al'iislamia**. Maktabat alnahdah almisria, Alqahira.
4. ALKHUDRY. M- **Muhadrat tarikh al'umam alislamyh – alduwaluh alamwiah**. Dar Al-qalam, Altabeah (al'uwlaa), Bayrut, 1986.
5. ZAROR. Ibrahim wa Ali Ahmed- **Tarikh aleasr al'amawia alsiyasii wa alhadarii.** Manshorat kuliyat Aladab, jamieat dimashq, suria, 1996.
6. AL-ZAYDI. M- **Mawsueat alttarikh aliislamii- Aleasr almamlukii**. Dar asama, amman, 2009.
7. AL-SUYOOTI. J- **Tarikh al khulafa'.** Dar Alfkr al'arabii, Alqahira, 2013.
8. AL-SHARIF. M- **liadarat aldawla al'iislamia.** Maktabat Almalik fahd, Altabeah (al'uwlaa), Alriyadh, 2013.
9. IBN KHALDON. A- **Almuqadama**. Muasast alrisalah, Bayrut, 1337.
10. Al-SALABI. A- **Tarikh dawlaty Almurabtin wa Almuahadin fi alshmal Al'iifriqii.** Dar Almaerifa, Altabeah (al'thalitha), Bayrut, 2009.
11. Al-TABARI. M- **Tarikh Alrusul wa almuluk.** Dar Almaearif, Altabeah (althania), Alqahira, 1966.
12. ASHOR. S- **Aleasr almmalikiu fi misr wa bilad alshsham.** Dar Al-nahda alearabia, Alqahira, 1976.
13. AL- QALQASHANDI. SH- **Sobh al'aesha fi sinaeat al'iinsha.** Dar alkutub almisriah, Alqahira, 1917.

14. MOU'NES. H- **Fajar Al'undulus- dirasah fi tarikh al'undulus min al fath Al'islamii iila qiam aldawlah al'amuwah 711-756 AH.** Dar Al'rashad, Altabeah (alrabeah), Alqahira, 2008.
15. MATZ. A- **Alhadarah al'islamia fi alqarn alarabie.** Lajnat altaalif wa alnusher, Altabeah (al'thalitha), Alqahira, 1975.
16. AL-YAQOUBI. A- **Tarikh alyaqoubi.** Almutbeah almurtadwiah, Alnajaf, Aliraq, 1939.

السخاوي في ميزان التدوين التاريخي

الباحث: د. نزار داوود سلطان

دكتوراه في (تاريخ العرب والإسلام)

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

السخاوي في ميزان التدوين التاريخي

يعد العصر المملوكي أحد أغزر العصور في التدوين والكتابة التاريخية، وقد لمع في سمائه نجوم مضيئة في مسيرة التدوين التاريخي، وما المؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي إلا أحد أعظم المؤرخين في العصر المملوكي المتأخر، والذي اتصف بسعة وغزارة الإنتاج وتنوع الموضوعات، ولم تقتصر مؤلفاته على فن التاريخ دون غيره بل تعداها لتشمل العلوم الدينية ولا سيما علم الحديث وعلم الرجال (الجرح والتعديل) وكذلك علوم اللغة العربية.

Sakhawi's Contribution in Historiography-Al

Abstract

Historiography flourished in the late Mamluk period during which the historian Muhammad Abdul-Rahman Al-Sakhawi emerged as one of the brightest names in the history of historiography. Al-Sakhawi's contribution was characterized by the diversity of subjects and wealth of production. Beside history, his works covered religion (including Hadith) and Arabic language disciplines.

المقدمة :

إن قوة الدولة هي التي تشكل الضمانة لصيانة الكيان الحضاري ، والحضارة لا تكشف عن إبداعها إلا إذا توافر الإنسان الفعال والمجتمع الحركي والدولة القوية ، وازدهار أي حضارة لا يتأتى إلا وفق مسارات منسجمة مع أحكامه ومقوماته المتكاملة ، وهذا ما سعت إليه الحضارة العربية بمختلف أدوارها، فواقع التاريخ العربي والإسلامي يشير إلى محاولات عديدة ومتكررة لإقامة دولة راشدة ، دولة تحقق السبق الزمني ، وتتخطى الإطار المكاني ، تلك المحاولات التي قادها رجال كبار وجدوا أنفسهم في مواقع المسؤولية ، تلك المسؤولية التي قد تتعاظم بخطر خارجي أو بتحد داخلي ، فحاولوا إعادة صياغة الحياة من جديد.

وقد تميز العصر المملوكي أنه عصر التجدد والمحافظة على الفكر الإنساني وعصر تأكيد التراث الكمي والتراكمي والقيم العربية والإسلامية ودعمها والتمسك القوي بها بعد زوال مركزية الخلافة وحاضرة العلم والعلماء . بغداد . على أيدي المغول سنة (656هـ/1258م) وضياع التراث الفكري للحضارة العربية الإسلامية، وهدم جهد ونتاج أجيال وأجيال من البناء في الحضارة الإنسانية والإسلامية، فضاع على الخلف ما جمعه السلف، ذلك أن حملة الثقافة العربية والإسلامية وجدوا أنفسهم أمام الخوف المصيري على الإسلام وعلى التراث فلا بد من احتضانه جملة وتجميعه جملة فانصرف العلماء إلى الأعمال الموسوعية يكثرون منها في نوع من الدفاع الذاتي ضد الأخطار المحيقة .

وقد شعر العلماء بهذه المسؤولية فامتلأت قلوبهم حماسة ، فقاموا بذلك قياماً مشكوراً ، وسعوا إليه سعياً حميداً ، وخاصة في ميدان التعليم والتأليف ، فكان العصر المملوكي يبنى بكثرة الرجال (أي العلماء الذين امتلأت بهم كتب الرجال والتراجم)، ويزدان عصر المماليك في مصر وبلاد الشام بنخبة ممتازة من الفحول والعلماء في مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر، وإن اسم كل واحد من هؤلاء العلماء يحمل معاني كثيرة ، تشير إلى تفوق ونضج في ميدان الثقافة والفكر .

فتهيأت لهذا العصر وفي خضم تلك المؤثرات الداخلية والخارجية وتفاعلها ، كمٌ ليس بالقليل من العقول النيرة وفي كل مجالات المعرفة والتي كان لها أثرها في العلم والعقل ، ومن ثم لنجد في تلك العقول أبرز مزية وهي التوسع والتنوع الفكري، ليس في التاريخ وحسب ، وإنما في مجمل العلوم.

وهذا ما دلل عليه المستشرق جيب بقوله : "يتركز الإنتاج الأكبر في عصر المماليك في مجال التأريخ ... حيث تزودنا بلاد الشام ومصر بسلسلة متتالية من علماء التأريخ المخلصين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، حتى أن مجرد ذكر أسمائهم وأهم أعمالهم سيأخذ من وقتنا الكثير"[1] ، ومن بين أشهر العلماء و المؤرخين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (831- 902هـ/ 1427- 1497م) الذي خط اسمه بأحرف نافرة بين علماء العصر المملوكي، وتميز بغزارة الإنتاج في مختلف الميادين وإن غلب على مؤلفاته التدوين التاريخي.

. إشكالية البحث : يطرح البحث مجموعة من القضايا من هو السخاوي؟ وما هي البيئة التي نشأ بها، وما هي العوامل الدافعة في تكوين شخصيته العلمية، وما هو دور الرحلات العلمية في بلورة فكره، ما هي أبرز مؤلفاته في كافة الفنون وخصوصاً التاريخية منها، وهل كانت أصيلة أم مجرد تقليد أو استنساخ أو ذيول ومختصرات؟ وما هي مكانته العلمية بين من سبقوه وأقرانه؟ وما هي علاقته بعلماء عصره ؟

. أهمية البحث : البحث يشكل مادة علمية للمهتمين بدراسة الحياة الفكرية في العصر المملوكي، ولا سيما في مجال التدوين التاريخي، ومحاولة تسليط الضوء على أبرز علماء العصر المملوكي المتأخر، وأبرز المؤلفات التي قام بتدوينها في مجال علم التاريخ أحد أبرز ميزات التدوين في العصر المملوكي، ومدى تأثيرها ومكانتها في المجال العلمي والتاريخي .

. أهداف البحث : يهدف البحث إلى دراسة الحياة الفكرية، وعلى وجه التحديد التدوين التاريخي، والتعريف بالمؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي الذي يعد من المؤرخين المتأخرين في هذا العصر، وتسليط الضوء على أهم مؤلفاته، والتي كان لها الأثر البالغ في مسيرة هذا الفن.

. منهج البحث : اعتمد البحث على جمع المادة العلمية التاريخية من المصادر والمراجع ذات الصلة المباشرة والوثيقة بموضوع البحث وتحليلها واستقرائها ومقارنتها مع بعضها، بغية الوصول إلى صورة واضحة وجلية عن شخصية المؤرخ السخاوي وما قدمه إنتاج فكري . تدوين تاريخي . ومكانته العلمية في مسيرة هذا العلم .

. مصطلحات البحث : السخاوي . التدوين التاريخي . ابن حجر العسقلاني . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . السيوطي.

. السخاوي :

1 . اسمه ونسبه :

ترجم السخاوي لنفسه في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ترجمة مستفيضة تنوف على الثلاثين صفحة، وقال في اسمه ونسبه : " محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن أبي بكر بن عثمان بن محمد الملقب شمس الدين أبو الخير وأبو عبد الله بن الزين أو الجلال أبي الفضل وأبي محمد السخاوي[2] الأصل القاهري الشافعي، المعروف بالسخاوي، وربما يقال له ابن البارد شهرة لجده، وهي شهرة يكرهها تأتي من أناس مخصوصين بالكراهية، لذا لم يشتهر بها أبوه بين الجمهور، ولا يذكره بها إلا من يحتقره".[3]

إذاً اشتهر بنسبه السخاوي ولم يشتهر بابن البارد شهرة جده البغدادي الأصل على الرغم من أن جده قد عرف بها، وهذه النسبة لا يحبها، وقد كان يلقبه بها من كان يحتقره أو يريد النيل منه، وقد قصد منهم أناس بعينهم بينه وبينهم مخاصمة.

2 . نشأته وطلبه للعلم :

ولد السخاوي في ربيع الأول سنة (831هـ/1427م) بحارة بهاء الدين [4]عُلوِ الدرب المجاور لمدرسة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني،[5] محل أبيه وجده، ثم تحول منه حين دخل في سن الرابعة مع أبوه لبيت قد اشتراه والده مجاور لسكن شيخه ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، إمام الحفاظ في زمانه وقاضي القضاة، إنتهت إليه الرياسة في الحديث (ت 852هـ/1448م)،[6] مما كان له الأثر البالغ في انتفاعه به وملازمته له، وتكوين شخصيته، فقد اعتاد الحضور لديه ومقاربته، حتى حمل عنه علماً جماً، واختص به كثيراً، وكان من أكثر الآخذين عنه، وأعانه على ذلك قرب منزله منه، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر.[7]

ومن أشهر العلماء الذين تلقى العلوم على يديهم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن خضر العثماني الشافعي، أحد أبرز فقهاء الشافعية (ت 852هـ/1448م)،[8] والقاضي جمال الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ الإمام محمد بن هشام الأنصاري الحنبلي، من أعيان فقهاء الديار المصرية (ت 855هـ/1451م)،[9] والعالم بالفقه والأصول والنحو وغيرها من العلوم كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ت861هـ/1457م)،[10] وأخذ الفقه والتفسير والعروض من قاضي القضاة الإمام العلامة علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني الشافعي (ت 868هـ/ 1463م)،[11] وتلقى علم الفرائض من شرف الدين أبو زكريا يحيى بن محمد بن محمد بن عبد السلام المناوي الشافعي، قاضي الديار المصرية والذي ولي تدريس الشافعية (ت 871هـ/ 1466م)،[12] والمفسر والأصولي المتكلم النحوي وأمام النحاة تقي الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلف الشمني الحنفي (ت 872هـ/1467م)، والذي نهل منه المعاني والبيان والتفسير،[13] كما أخذ في مكة من شيخها ومحدثها ومسندها تقي الدين أبو الفضل محمد بن نجم الدين محمد بن أبي الخير بن فهد الهاشمي المكي الشافعي (ت 871هـ/1466م).[14]

وقد حفظ السخاوي القرآن الكريم وهو صغير، وحفظ كتاب عمدة الأحكام[15] وكتاب التنبيه في فروع الشافعية[16] وكتاب المنهاج[17] وألفية ابن مالك في النحو[18] وألفية ابن العراقي[19] وغالب الشاطبية [20] كما حفظ كتاب النخبة[21] لابن حجر العسقلاني، وغير ذلك.

وقد برع في الفقه والعربية والقراءات والحديث والتاريخ وشارك في الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه والميقات وغيرها، وأما مقروآته ومسموعاته فكثيرة جداً لا تكاد تحصى، وأخذ عن جماعة يزيدون على أربعمائة نفس، لكن يبقى أشهرهم وأكثر من لازمهم شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني.[22]

وبعد أن أخذ من مشايخ عصره بمصر ونواحيها، حج وأخذ عن مشايخ مكة والمدينة، ثم عاد إلى وطنه وارتحل إلى الإسكندرية والقدس والخليل ودمياط ودمشق وسائر جهات الشام ومصر، وبرع في هذا الشأن وفاق الأقران، وحفظ من الحديث ما

صار متفرداً به عن أهل عصره، ثم حج سنة (870هـ/1465م) هو وأهله وجاور وانتفع به أهل الحرمين، ثم عاد إلى القاهرة ، ثم حج مرات وجاور مجاورات، وكانت وفاته في مجاورته الأخيرة في المدينة الشريفة في عصر يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة (902هـ/1497م).[23]

3 . الوظائف التي شغلها :

أمضى السخاوي حياته بين الارتحال وطلب العلم والتدريس والتأليف ، فقد عقد مجالس الإملاء والتدريس بمنزله يسيراً، ثم تحول لخانقاه سعيد السعداء[24] وغيرها، حتى أكمل (59) مجلساً، وعندما حج سنة (870هـ/1465م) وجاور حدث بأشياء من تصانيفه وغيرها كألفية الحديث للعراقي والنخبة لابن حجر، وأملى مجالس في المسجد الحرام.

وعندما عاد إلى القاهرة شرع في الإملاء، وبلغت مجالس الإملاء أكثر من (600) مجلس، مع ملازمة الناس له في منزله للقراءة دراية ورواية في تصانيفه وغيرها، بحيث ختم عليه ما يفوق الوصف من ذلك، وأخذ عنه من الخلائق من لا يحصى كثرة.[25]

واستقر في تدريس الحديث بدار الحديث الكاملية،[26] وتدريس الحديث بالمدرسة الصرغتمشية،[27] وتدريس الحديث بالمدرسة الظاهرية القديمة،[28] وقام بتدريس الحديث أيضاً بالمدرسة البرقوقية،[29] وتدريس الحديث بالمدرسة الفاضلية.[30]

وقد بقي السخاوي على الرغم من مكانته العلمية الرفيعة بعيداً عن ميدان السياسة والمناصب ولا يحبذ التقرب من الأمراء والسلاطين، فقد اعتذر وبالغ في التنصل حين طلب منه يشبك الدوادار الفقيه[31] قراءة الحديث بمجلس السلطان والمبيت عند

السلطان الظاهر خشقدم (872.865هـ/ 1467.1461م) ليلتين في الأسبوع ليقرأ له نخباً من التاريخ، وقد عرض عليه شفاهاً قضاء مصر فاعتذر له.

وقد استمر في الإقراء والتدريس لغاية وفاته وهو يبلغ من العمر الحادية والسبعين.[32]

5 . مؤلفاتـه :

شرع السخاوي في التصنيف والتأليف والتخريج قبل أن يبلغ العشرين من عمره، ويعد من العلماء الفضلاء ذوي الإنتاج الغزير، فقد صنف ما يقارب المائتي كتاب، تنوعت مؤلفاته وتصانيفه، وإن غلب عليها الطابع الديني والتاريخي ، ومن أشهر مؤلفاته :

آ . في علوم اللغة العربية :

. (الجواهر المجموعة) وهو في الأدب، و (الحث على تعلم النحو) ، و(الأجوبة العلية عن المسائل النثرية) في مجلدين.[33]

ب . في علوم الدين :

إن أغلب إنتاج السخاوي الفكري متعلق بالعلوم الدينية وخاصة علم الحديث، وعلم الجرح والتعديل (علم الرجال)، وقد غلب عليها هذا الطابع واتسمت به، وهذا ما فاق فيه الأقران وأصبح من خلاله سيد عصره، ومقصد الناس والطلبة ، ومن أشهر مؤلفاته :

. (المقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة) و (البستان في مسألة الاختتان) و (الأصل الأصيل في تحريم النظر في التوراة والإنجيل) و(القناعة فيما تحسن إليه الحاجة من أشراط الساعة) و(عمدة المحتج في حكم الشطرنج) و(التوضيح الأبهر لتذكرة

ابن الملقن على الأثر) و(الابتهاج بأذكار المسافر الحاج) و(القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع) و (التوجه إلى الرب بدعوات الكرب) و(فتح المغيث بشرح ألفية الحديث) شرح فيه ألفية العراقي ، وهو في علم مصطلح الحديث ، في مجلد ضخم، و(الجواهر المكللة في الأخبار المسلسلة) في الحديث الشريف، وهي مائة استفتحها بمن سبقه لجمع المسلسلات ، مع انفراده بما اجتمع فيها، و(عمدة القارئ والسامع في ختم الصحيح الجامع) في الحديث، و (القول التام في فضل الرمي بالسهام) و(تخريج أربعين النووي) و(القول البار في تكملة تخريج ابن حجر للأذكار) و (تخريج أحاديث العالين لأبي نعيم) و(شرح التقريب للنووي) و (بلوغ الأمل في تلخيص كتابي الدار قطني في العلل) و(أقرب الوسائل في شرح الشمائل) للترمذي، في مجلد، و (القول المفيد في إيضاح شرح العمدة لابن دقيق العيد) و(تحرير الميزان) و (غنية المحتاج في ختم صحيح مسلم بن الحجاج) و(القول المنبي في ذم ابن عربي).[34]

ج . في علم التاريخ :

إن المتأمل في إنتاج السخاوي التاريخي يلاحظ الوفرة في التصنيف والتأليف، كما هو الحال في علم الحديث، وإن غلب عليها طابع التراجم / أي علم الرجال / المتعلق أصلاً والمنبثق نوعاً من علم الجرح والتعديل، ومن أشهر مؤلفاته :

. أحسن المساعي في إيضاح حوادث البقاعي: [35]

. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: عرف فيه السخاوي التاريخ وما ألف فيه، وأسماء المؤرخين على حروف الهجاء، وقد قال في مقدمته: " وبعد فلما كان الاشتغال في التاريخ للعلماء من أهل القربات، بل من العلوم الواجبات .... لكن لم أر في فضائله مؤلفاً يشفي الغليل، ويزيل الكربات، أردت إتحاف العارفين بما لا غناء عنه في هذا

الشأن من المبهمات، وأن أظهر ما فيه من الفوائد المأثورات، فأبدأ بتعريفه لغةً واصطلاحاً موضوعه وفوائده المعبر عنها بالثمرات، وغايته وحكمه من الوجوب أو الاستحباب أو الإباحات ..... وما علمت فيه من المصنفات على اختلاف المقاصد في الأشخاص والجهات وغير ذلك من الفنون المتنوعات".[36]

. الاهتمام في ترجمة الكمال ابن الهمام:

. بغية الراوي بمن أخذ عنه السخاوي: وهو تراجم لشيوخه في 3 مجلدات.[37]

. بغية العلماء والرواة: أو ما يعرف بـ **(الذيل على رفع الأصر عن قضاة مصر)** : استدرك فيه وذيل على كتاب شيخه ابن حجر العسقلاني، وقد قال السخاوي في مقدمته: " وبعد: فهذا جزء أفردت فيه بالذكر من تأخر عن شيخنا من كبار القضاة بالقاهرة ومصر، وكذا من كان بزمنه ممن لم أره بأصله مسطوراً أو أثبته، ولكن طوى أكثر خبره لكونه لم يكن عنده منشوراً..... وألحقت به جماعة ممن خلفوا قضاتهم مدة غيبتهم في السفر بمرسوم من السلطان، ورتبته كأصله الترتيب المألوف على الحروف".[38]

. البلدانيات : ذكر فيه البلاد والقرى التي دخلها، وقد بلغت الثمانين، خرج في كل بلد أو قرية عن واحد من أهلها أو القادمين إليها حديثاً أو أثراً أو شعراً أو حكاية، مرتباً الأماكن على حروف المعجم.[39]

. تاريخ المدنيين: في مجلدين.

. التاريخ المحيط: وهو نحو ثلاثمائة ترجمة على حروف المعجم .[40]

. التبر المسبوك في ذيل تاريخ السلوك للمقريزي: وهو تتمة لكتاب (السلوك لمعرفة دول المملوك) للمؤرخ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت 845هـ/

1441م)، الذي تتوقف حوادثه لغاية سنة (844هـ/ 1440م)، فأكمل وذيل عليه السخاوي الحوادث من سنة (845هـ/1441م) ولغاية سنة (857هـ/ 1453م) بموجب طلب ورغبة من الأمير الدوادار يشبك بن مهدي القاهري.

وقد عني السخاوي بتدوين حوادث تلك الفترة المعاصرة بإسهاب، وذيل كل عام بوفيات أعيانه، وقد أفاض في تفاصيل تراجم تلك الوفيات بعد أن رتبها هجائياً، وهذا هو الاختلاف بين كتاب التبر المسبوك للسخاوي، وكتاب السلوك للمقريزي.[41]

. التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة: وهذا الكتاب يؤرخ للمدينة المنورة، على مدار تسعة قرون، أي منذ هجرة الرسول الكريم محمد ﷺ وتأسيس بذور الدولة العربية والإسلامية، ولغاية عصر المؤلف ، وهو يتعلق بالمدينة المنورة أهلها والوافدين إليها، سواء أقاموا مدة قصيرة أو طويلة، والعاملين في خدمة المسجد النبوي، وقال في مقدمة كتابه هذا : " توجهت لبيان أحوال أهل طيبة المشار إليها، والمخصوصة بالمزيد من الفضائل المنبه عليها، لأحوز بركة المرتفع منهم ..... وألحقت بهم من تخلف عن طريقهم ..... بل لم أقتصر على هؤلاء ، حيث ذكرت من قطنها من الغرباء ولو سنة ، بشرط أن يكون درس فيها أو حدث أو أفتى بالطريقة المرضية..."[42]

. ترجمة النحوي الجمال بن هشام:

. ترجمة السخاوي: ترجم فيه لنفسه.

. تلخيص تاريخ اليمن:

. تلخيص طبقات القراء: [43]

. الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: [44]

. الذيل على طبقات القراء لابن الجزري:

. الرحلة السكندرية وتراجمها:

. الرحلة الحلبية وتراجمها:

. الرحلة المكية:

. السيف القاطع في التاريخ : من كتب الوفيات ، مرتب على الأسماء.

. الشافي من الألم في وفيات الأمم: يتعلق بالقرنين الثامن والتاسع. (45)

. طبقات الأولياء المكرمين: ويعد هذا الكتاب من الكتب المغمورة الضائعة المجهولة، إذ لم يرد ذكره بين عتاد مؤلفات السخاوي، وإنما تم نسبته إلى السخاوي بعدد من الأدلة، مع ما فيه من إشارات من ملامح شخصية السخاوي العلمية، على حد قول وإثبات المحقق ودار النشر.(46)

. طبقات المالكية: في أربعة أسفار، تم فيه ترتيب طبقات المالكية لابن فرحون، في ترجمته والآخذين عنه.(47)

. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : ويعد كتاب الضوء اللامع لأهل القرن التاسع والذي هو كتاب جامع لأعلام القرن التاسع الهجري، جمع فيه التراجم من سنة (801هـ/ 1398م) ولغاية سنة (900هـ/ 1494م) من أشهر مؤلفات السخاوي وأنفسها وأكثرها تداولاً وشهرة ، وقد نهج فيه نهج معلمه وشيخه ابن حجر العسقلاني صاحب مؤلف (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) في فكرة ترتيب السير والتراجم في قرن واحد.

وقد قال عنه الشوكاني : " ولو لم يكن لصاحب الترجمة من التصانيف إلا

الضوء اللامع لكان أعظم دليل على إمامته فأنه ترجم فيه أهل الديار الإسلامية، وسرد في ترجمة كل أحد".[48]

وقد ذكر السخاوي في مقدمة مؤلفه شرحاً وافياً عما تضمنه هذا المؤلف الضخم في التراجم، حيث قال : " وبعد: فهذا كتاب من أهم مابه يعتنى، جمعت فيه من علمته من أهل هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وثمانمائة، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء أو الخلفاء والملوك والأمراء والمباشرين والوزراء، مصرياً كان أو شامياً حجازياً أو يمنياً رومياً أو هندياً شرقياً أو مغربياً، بل ذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة اكتفاءاً في أكثرهم بمن أضفتهم إليه في عزوه لأنه اجتمع لي من الجم الغفير وارتفع عن اللبس في جمهورهم إلا اليسير .

وألحقت في أثنائه كثيراً من الموجودين رجاء انتفاع من لعله يسأل عنهم من المستفيدين مع غلبة الظن الغنى عن التوجيه ببقاء من شاء الله منهم إلى القرن الذي يليه، مرتباً لتسهيل الكشف على حروف المعجم الترتيب المعهود في الأسماء والآباء والأنساب والجدود، مبتدياً من الرجال بالأسماء ثم الكنى ثم بالأنساب والألقاب كذا المبهمات بعد الأبناء مراعياً في الترتيب لذلك كله حروف الكلمة المفقودة بحيث أبدأ بالألف مثلاً بالهمزة الممدودة، ثم بالهمزة التي بعدها موحدة وألف، ثم بالتي بعدها راء على ما ألف ".[49]

. عمدة الأصحاب في معرفة الألقاب: [50]

. المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي: [51]

. المعين : رسالة في تراجم المذكورين في الأربعين النووية.

. منتقى تاريخ مكة للفاسي:

. الكوكب المضيء : ترجم به بعض معاصريه. [52]

. وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام: وهذا الكتاب ذيل به السخاوي على كتاب (دول الإسلام) لشيخ المؤرخين الإمام محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748هـ/ 1347م)، والذي انتهى لغاية سنة (744هـ/ 1343م)، فذيل عليه السخاوي من سنة (745هـ/ 1344م) ولغاية سنة (898هـ/ 1492م) أي زهاء القرن ونصف، اتبع فيه سبيل الاختصار، وقال في مقدمته: " أما بعد: فهذا ذيل تام على دول الإسلام لشيخ الحفاظ والمؤرخين أبي عبد الله الذهبي، أوحد المعدلين والمجروحين، جمعته امتثالاً لإشارة من فاق حسناً ومعنى، سلكت فيه طريق الاختصار، وسبكت من أصوله ما يعظم به الافتخار، تابعاً في ذلك لأصله، بالتوسع فيه قليلاً، وإن لم أشف غليلاً".[53]

6 . أقوال العلماء فيه ومكانته العلمية والتاريخية:

إن كان السخاوي قد عكس ارتباطه بطبيعة المجتمع والعصر الذي عاش فيه من خلال نشأته وتلقيه العلوم ذات الارتباط الوثيق بواقعه ومحيطه العلمي والفكري وحله وترحاله وتدريسها وإملائها ، يبقى الشطر الأنبل في طبيعته هو بما حواه من ملكات ادخرها في علمه وعمله ، فجعلت منه نوع الإجابات التي أدلى بها عبر مؤلفاته شخصاً معروف الهوية وهبته الخلود والقدر الكافي من الاحترام في ضمائر المعاصرين والأقران والأجيال اللاحقة .

ونجد الكثير من الآراء التي اجتمعت على منحه الفكرة الجوهرية من قانون الخلود في الذاكرة والتدوين التاريخي، وبعض هذه الآراء أوردها السخاوي في معرض ترجمته لنفسه في كتابه الضوء اللامع، ومن هذه الآراء ما قاله محدث الحجاز النجم محمد بن محمد بن فهد الهاشمي (ت885هـ/ 1480م) : " زين الحفاظ وعمدة الأئمة

الأيقاظ شمس الدنيا والدين، ممن اعتنى بخدمة حديث سيد المرسلين، واشتهر بذلك في العالين على طريقة أهل الدين والتقوى فبلغ فيه الغاية القصوى".[54]

كما أورد قول الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ/1480م)، على الرغم مما كان بينهما من مشاحنات وتراشق لفظي، حيث قال عنه السخاوي في معرض ترجمته:" صاحب تلك العجائب والنوائب والقلاقل والمسائل المتعارضة المتناقضة، ولم يبلغ العلم ولا بلغ مرتبة العلماء"،[55] فقال البقاعي بحقه : " إنه ممن ضرب في الحديث بأوفر نصيب وأوفى سهم مصيب المحدث البارع الأوحد المفيد الحافظ الأمجد، إذا وافقني فلان لا يضرني من خالفني".[56]

وقد أورد الشوكاني في البدر الطالع قول تلميذه جار الله بن عبد العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي (ت 954هـ/1547م) في معرض ترجمة السخاوي لنفسه في الضوء اللامع، حيث قال : " إن شيخنا صاحب الترجمة حقيق بما ذكره لنفسه من الأوصاف الحسنة، والله العظيم لم أر في الحفاظ المتأخرين مثله، ويعلم ذلك كل من اطلع على مؤلفاته أو شاهده، وهو عارف بفنه منصف في تراجمه، وطار اسمه في الآفاق وكثرت مصنفاته فيه وفي غيره..... وله اليد الطولى في المعرفة بأسماء الرجال وأحوال الرواة والجرح والتعديل".[57]

وقد وصفه محمد بن محمد الغزي (ت1061هـ/1650م) بقوله :" الإمام العالم المسند الحافظ المتقن".[58]

وقال عنه ابن العماد في شذراته : " برع في الفقه والعربية والقراءات والحديث والتاريخ وشارك في الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه والميقات وغيرها، وأخذ عنه جماعة لا يحصون يزيدون على أربعمائة نفس، وقال عنه شيخه ابن حجر : هو أمثل جماعتي ".[59]

لكن المؤرخ والحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت911هـ/ 1505م) وهو من أقران السخاوي ومعاصريه، كان له رأي مخالف لكل ما قيل، حيث قال عنه في معرض ترجمته له : " انتقى وخرج لنفسه ولغيره مع كثرة لحنه وعريه من كل علم، بحيث أنه لا يحسن من غير الفن الحديثي شيئاً أصلاً، ثم أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره، وأغرق فيه عمله وسلق فيه أعراض الناس وملأه بمساوئ الخلق، وكل ما رُمو به إن صدقاً وإن كذباً، وزعم أنه قام بذلك بواجب، وهو الجرح والتعديل، وهذا جهل مبين وظلال وافتراء على الله، بل قام بجرم كبير وباء بوزر كثير، وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر به، أو يعتمد على ما في تاريخه من الإزراء بالناس خصوصاً العلماء ولا يلتفت إليه".[60]

وما دفع السيوطي لهذا القول هو ما كان بينه وبين السخاوي من نقد لاذع ومناكفة ومنافسة واتهام متبادل من عدم المعرفة والسرقة والانتحال، حيث قال السيوطي وعلى حد قول الشوكاني : " لم يسلم من حاسد لفضله وجاحد لمناقبه"،[61] وهذا ما عبر عنه السيوطي نفسه في كتابه (الحاوي) عندما قال : "وقد أوذيت على ذلك كثيراً من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله في العلماء السالفين ، فلم يزالوا مبتلين بأسقاط الخلق وأرذالهم ، وبمن هو من طائفتهم ممن لم يرتق إلى محلهم" .[62]

وكان قرينه وابن عصره السخاوي قد ترجم له في (الضوء اللامع) وقام بالانتقاص من قدر السيوطي ، بحيث جرده من كل فضيلة ، واتهمه بالخيانة العلمية ، والسرقات الفكرية ، والسطو على علوم العلماء لينسبها إلى نفسه ، واتهمه بالبلادة والغباء لأنه يجهل مسائل الحساب ، وإن هذا التنافس بينهما أوجب على السيوطي تأليف رسالة سماها (الكاوي في الرد على السخاوي) .[63]

وعلى أية حال فإن ما ذكر من قبل السيوطي بحق السخاوي لا ينقص من مكانته العلمية والفكرية التاريخية، المعترف بها من قبل معاصريه والأجيال اللاحقة مع

الإقرار من قبل الجميع على أن السخاوي اختص بعلم التراجم . أي الرجال . أكثر من غيره من الفنون التاريخية وانفرد به ، وهذا ما ظهر جلياً من خلال مصنفاته ومحتوياتها، فهو حتى عندما يكتب وفق النظام الحولي كما فعل في كتاب التبر المسبوك، وكتاب وجيز الكلام، قام بالتركيز والتوسع في الوفيات والترجمة لها، وهذا ناجم عن إبداعه وإنفراده بعلم الحديث (الجرح والتعديل) دون غيره من العلوم، بحيث أصبح علامة عصره والمرجع في القرن التاسع الهجري، بعد وفاة أستاذه الحافظ ابن حجر العسقلاني.

وقد شهد له هاملتون جب حين قال : " وبقيت بلاد الشام ومصر مركزين للإنتاج التاريخي الغزير، الذي يكشف عن درجة من التفرد وخاصة في ميدان التراجم، وقد أنجبت مدرسة مصر مجموعة بارزة من المؤرخين، ومن هؤلاء المؤرخ شمس الدين السخاوي".(64)

. الخاتمة :

ومما سبق يتضح أن المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي قد عكس طبيعة العصر الذي عاش فيه . العصر المملوكي . من حيث النشأة والتكوين وطلب العلم من المشايخ والعلماء، والحل و الترحال ، وسعة العلوم وتنوعها، وإن غلب على علومه الطابع الديني / الذي شكل سمة العصر / ولا سيما علم الحديث، فشهد له القاصي والداني بالبراعة والإتقان والتفنن في هذا العلم، إلا أن هذا لا ينفي مكانته التاريخية التي دونها في سجل الخالدين من خلال مؤلفاته التي ما إن يذكر العصر المملوكي وعلمائه المؤرخين حتى يبرز اسم السخاوي.

كما أن السخاوي ومن خلال ما دونه تاريخياً من خلال مؤلفاته هذه قد حفظ للأجيال وللتاريخ معلومات هامة عن حقبة تشكل بداية الانحدار للدولة المملوكية،

وأضحت بالنسبة إلينا اليوم ثروة تاريخية، فكان شاهداً على عصر، ولا غنى لأي باحث في التاريخ وعن هذه الفترة بالتحديد من العودة لها والاستعانة بمخزونها التاريخي.

كما يلاحظ على مؤلفات السخاوي أن أغلبها في فن التراجم الذي اختص به، كما أنها لم تكن ذات طابع فريد من نوعه، فهي عبارة عن ذيول على مؤلفات من سبقه من المؤرخين كوجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، والتبر المسبوك في ذيل السلوك، الذيل على رفع الأصر عن قضاة مصر، وغيرها، كما أن بعض مؤلفاته كانت عبارة عن تلخيص كتلخيص تاريخ اليمن، وتلخيص طبقات القراء، وغيرها، أو عبارة عن ترجمات لأشخاص معدودين بعينهم، كترجمة شيخه ابن حجر، وترجمة النووي أو شيوخه، أو حتى ترجمة نفسه، وهذا الفن سبقه غيره من المؤرخين إليه في نظام التراجم والسير المخصوصة، وعندما ألف كتابه المشهور الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، قال في مقدمته ما نصه: " أنه لم ير كتاباً شافياً ووافياً عن علم التاريخ، فأراد أن يفرد له مؤلفاً بهذا الخصوص"، ليكون هذا المؤلف ذا نمط شكلي مختلف، وإن حمل ضمناً فن تراجم الأعلام والمصنفين والفنون التاريخية.

وتبقى أكبر المآخذ على مؤلفاته وتراجمه هو النقد اللاذع الذي نال من بعض الترجمات، كما فعل مع أكبر المصنفين والمؤرخين والأدباء وقرينه السيوطي، وكما فعل مع البرهان البقاعي الذي نفى عنه أي صفة علمية، فقد كان السخاوي يمتدح شيوخه وتلامذته ومن له علاقة مباشرة به، وينال من غيرهم.

الهوامش

(1). Gibb, H.A.R; Arabic literature, Oxfored, London, P146.

(2)ـ نسبة إلى مدينة سخا، بفتح السين المهملة والخاء المعجمة وألف في آخرها، وهي بلدة حسنة من عمل الغربية، غربي الفسطاط، القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب الخديوية، 1914م، ج3، ص388.

(3) . السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ج8،ص2؛ الغزي، محمد بن محمد: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، وضع حواشيه : خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج1، ص53؛ ابن العماد، عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الميسرة، بيروت، ط2، 1979م،ج8، ص15؛الشوكاني، محمد بن علي: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج2، ص184 ؛ الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج6، ص194.

(4)ـ حارة بهاء الدين : هذه الحارة كانت قديماً خارج باب الفتوح، وأصبحت فيما بعد داخل باب الفتوح، وهي من خط باب الفتوح إلى خط حارة الوؤاقة بسوق المرحليين، المقريزي، أحمد بن علي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الخطط المقريزية، تح : محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1998م، ج2، ص370.

(5)ـ سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب بن عبد الخالق البلقيني، الفقيه الشافعي الذي انتهت إليه رياسة العلم، (ت 805هـ/1402م)، وقد أنشأ مدرسته بالقرب من منزله في حارة بهاء الدين، المقريزي، أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: عبد القادر محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م، ج6، ص93؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص85، 90.

(6)ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1968م، ج1، ص363؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص270. 271.

(7)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: البلدانيات، تح: حسام القطان، دار العطاء، الرياض، ط1، 2001م، ص12.

(8)ـ ابن تغري بردي، أبي المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم: محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية ، بيروت،ط1، 1992م، ج15، ص252؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص184.

(9)ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979م، ج1، ص148؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص285.

(10)ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص187؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج1، ص166؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص298.

(11)ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص333؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص4؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص307.

(12)ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص353؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص4؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص312.

(13)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص4؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج7، ص313.

(14)ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص352؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص184.

(15)ـ من تأليف المحدث الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور بن رافع المقدسي، (ت 600هـ/1203م)،كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1993م، ج2، ص179.

(16)ـ للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت476هـ/1083م) وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة بين الشافعية وأكثرها تداولاً وله شروح كثيرة، حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1941م، مج1، ص499.

(17)ـ منهاج الطالبين وعمدة المتقين للإمام محي الدين بن زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي (ت 676هـ/1277م) وهو كتاب مختصر لمحرر في فروع الشافعية، حاجي خليفة: كشف الظنون، مج2، ص 1873.

(18)ـ لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك النحوي (ت670هـ/1273م) وهي مشهورة، جمع فيها مقاصد اللغة العربية وسماها الخلاصة، واشتهرت بالألفية لأنها أكثر من ألف بيت في الرجز،السيوطي، ج1، ص30؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، مج1، ص151.

(19)ـ لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر المعروف بابن العراقي المحدث الحافظ الفقيه (ت809هـ/1404م)، وهي في علوم الحديث، كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص130.

(20)ـ للقاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الأندلسي الشاطبي الضرير المقرىء (ت590هـ/ 1193م) ، واسم الكتاب الأصلي حرز الأماني ووجه التهاني، في القراءات السبع، وتعرف باسم الشاطبية، الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام، تح: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1988م، ج41، ص 383؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج2، ص 647.

(21) . واسمه نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، في علوم الحديث، حاجي خليفة: كشف الظنون، مج2، ص1936.

(22). ابن العماد: شذرات الذهب، ج8، 15.

(23). الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص184، 186.

(24)ـ خانقاه سعيد السعداء: أول خانقاه أنشئت في مصر تقع هذه الخانقاه بخط رحبة باب العبد من القاهرة في حي الجمالية الآن وكانت أول دار تعرف في عصر الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، ولقب سعيد السعداء أحد

الأستاذين المحنكين خدام قصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ، المقريزي: الخطط، ج3، ص158.

(25). السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص13. 14. 15.

(26)ـ دار الحديث الكاملية: هذه المدرسة بخط بين القصرين في القاهرة، أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل الأيوبي سنة (622هـ/ 1225م)، المقريزي: الخطط، ج3، ص467؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص262.

(27)ـ المدرسة الصرغتمشية: تقع خارج القاهرة، بجوار جامع أحمد بن طولون، فيما بينه وبين قلعة الجبل، أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري سنة (756هـ/ 1355م)، المقريزي: الخطط، ج3، ص540؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص268.

(28)ـ المدرسة الظاهرية القديمة: تقع في القاهرة من جملة خط بين القصرين، كان موضعها من القصر الكبير، ويعرف بقاعة الخيم، وهي من أجل مدارس القاهرة، أنشأها السلطان الظاهر بيبرس ، المقريزي: الخطط، ج3، ص476، 479؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص 264.

(29)ـ المدرسة البرقوقية: وهي جامع وخانقاه ومدرسة، تقع بخط بين القصرين فيما بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الظاهر برقوق سنة (786هـ/ 1366م)، المقريزي: الخطط، ج3، ص578.

(30)ـ المدرسة الفاضلية: هذه المدرسة بدرب ملوخيان في القاهرة، بناها القاضي عبد الرحيم بن علي البيساني بجوار داره سنة (580هـ/ 1184م)، المقريزي: الخطط، ج3، ص444.

(31)ـ يشبك بن مهدي الظاهري جقمق ويعرف بالصغير الفقيه، أصبح دواداراً كبيراً أيام السلطان الظاهر خشقدم، (ت 885هـ/ 1480م)، السخاوي: الضوء اللامع، ج6، ص270.

(32)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص 31ـ32؛ عنان، محمد عبد الله: مؤرخو مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1969م، ص131ـ 132.

(33)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص19؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص195.

(34)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، 16؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج1، ص 53؛ الشوكاني: البدر الطالع: ج2، ص 185؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص 195؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج3، ص399.

(35). السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص 17.

(36)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تح: محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، 1989م،ص15؛ سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك، المطبعة النموذجية، القاهرة، مج3، ص98.

(37). الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص185.

(38)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الذيل على رفع الأصر عن قضاة مصر، تح: جوده هلال، محمد صبح، ص3.

(39)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: البلدانيات، تح: حسام القطان، دار العطاء، الرياض، ط 1، 2001م، ص42، السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص15.

(40). السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص 17.

(41)ـ السخاوي: محمد بن عبد الرحمن، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مراجعة: سعيد عاشور، تح: نجوى كامل، لبيبة مصطفى، دار الكتب الوثائقية القومية، القاهرة، 2002م، ج1، ص 38 وما بعد.

(42)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عني به: أسعد الحسيني، د.ط، 1979م، ص5، 18. 19.

(43)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص17؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص195.

(44)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تح: إبراهيم عبد المجيد، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1999م.

(45)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص17؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج2، 185؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص195؛ كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، 1972م، ص123.

(46)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: طبقات الأولياء المكرمين، تح: محمد الجادر، دار الفتح للدراسات، عمان، ط1، 2020م.

(47)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص17؛ السخاوي: الإعلان بالتوبيخ ص182.

(48). الشوكاني : البدر الطالع، ج2، ص186.

(49). السخاوي: الضوء اللامع، ج1، ص5.

(50). السخاوي: الضوء الامع، ج8، ص17.

(51)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي، تح: محمد الخطراوي، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط1، 2015م.

(52)ـ السخاوي: الضوء اللامع، ج8، 16ـ 17؛ الشوكاني: البدر الطالع: ج2، ص 185؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص 195؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج3، ص399.

(53)ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1995م، ج1، ص3.

(54). السخاوي: الضوؤ اللامع، ج8، ص20.

(55). السخاوي: الضوء اللامع، ج1، ص101. 102.

(56). السخاوي: الضوء اللامع، ج8، ص21.

(57). الشوكاني: البدر الطالع، ج2، ص185. 186.

(58). الغزي: الكواكب السائرة،ج1، ص 53.

(59). ابن العماد: شذرات الذهب، ج8، ص 15.

(60)ـ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحرير: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، 1927م، ص152. 153.

(61) . الشوكاني : البدر الطالع، ج1، ص329 .

(62) . السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الحاوي للفتاوي، دار الباز، مكة المكرمة، ج2، ص300 .

(63). الشوكاني : البدر الطالع، ج1، ص332 .

(64)ـ جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام، تر: إحسان عباس، محمد نجم، محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م، ص169.

أثر التَّصوُّف في المغرب العربيّ الإسلامي خلال القرنين(5-6هـ / 11-12م)

الباحث: د. نزار داوود سلطان

(تاريخ العرب والإسلام)

قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة البعث

ملخص البحث باللغة العربية

يعدُّ التصوف عنصراً مهماً من عناصر التراث الإسلامي، وكحركة تستهدف تعميق المضامين الروحية، كان لها تأثير عميق في مجرى الحياة اليومية لسكان الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولا غرو أن عُدَّ موضوع التصوف وما يحمله من أفكار من اختصاص السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين أكثر من المؤرخين، بينما هو في واقع الأمر نتاج اجتماعي وإفراز لأوضاعٍ تاريخية، وواقع يزخر بالتناقضات، فإنَّ حركة التصوف في الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة شكلت معلمة هامة في التاريخ الاجتماعيّ للمغرب الأوسط وقد جاء ظهورها لأزمات تعرض لها المجتمع لذلك كان من الواضح أن يساهم المتصوفة في خلق التوازن على جميع الأصعدة، كما كانت حركة التصوف نشيطة ويدل على ذلك من خلال كثرة أعلام التَّصوُّف الذين أنجبتهم بلاد الغرب الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الغرب الإسلامي، التَّصوُّف، التراث الإسلامي، مبادئ، العرفان، التَّزكيات، الحُجَج.

Abstract

Sufism is an important component of the Islamic heritage, and as a movement aimed at deepening the spiritual contents, it had a profound impact on the course of daily life of the inhabitants of the Islamic West in the medieval era. In fact, it is a social product and a secretion of historical conditions, and a reality full of contradictions. The Sufism movement in the Islamic West during this period constituted an important milestone in the social history of the Middle Maghreb. The Sufism movement was also active, and this is evidenced by the large number of Sufism figures that the countries of the Islamic West gave birth to.

key words: The Islamic West, Sufism, Islamic heritage, principles, gratitude, endorsements, arguments.

مُقدِّمة:

يعدُّ التصوف أحد معالم الشخصية المغربية الراسخة في وجدان المجتمع المغربي، والذي وجد ارتياحاً داخل ضمير العامة والخاصة على السواء، بسبب ما يكتنف خطابه من مشرب أخلاقي يستجيب وطبيعة العقلية الفقهية التي تطبع شرائحه، وكذلك ميول أهله إلى البساطة وبعدهم عن التجريد، لذلك لم تكن علوم الكلام والفلسفة تجد قبولاً عندهم، لما يطبعها من جنوح إلى جانب النظر دون العمل.

وقد ذكرت عدة مصادر ممن أرخت للتصوف المغربي مثل التشوف إلى رجال التصوف، والمقصد الشريف، والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، والمستفاد في مناقب العباد، وأنس الفقير وعز الحقير، الحياة الروحية لبلاد المغرب، التي تمثلت في تأثير عدد من أقطاب الولاية في عقلية وسلوكيات المجتمع المغربي، لما كان تحمله ممارستهم الصوفية من طابع عملي أخلاقي، يستند رجالاته إلى شخصية الإمام الجنيد باعتباره رمزاً للمدرسة الصوفية الأخلاقية، في مقابل مدرسة الإشراق الذي يعتبر أبو يزيد البسطامي أحد أقطابها.

إلَّا أنَّ هذا الاتجاه الإشراقي داخل الممارسة الصوفية رغم معارضة بعض العلماء لمضمونه الرمزي، وتحفظ بعض الصوفية في كشفه لغيرهم، يبقى سمة التجربة الصوفية بما هي رقي في مدارج الكمال المحمدي، وارتواء من بحر العلم الرباني، فلا يمكن فصل هذه المعاني عن التجربة الصوفية، باعتبارها ليست عملاً كسبياً يدخل تحت تصرف السائرين، وإنما هي إشراقة نورانية من بحر العظمة الإلهية، تغمر أهل السلوك بما لا يستطيعون دفعه، فأهل الرسوخ والتمكين يستطيعون ضبطها وتصريفها في قوالب لا تعارض في ظاهرها الشعور العام، وغيرهم ممن لم يبلغ منزلتهم يقعون تحت قوتها، فلا يملكون إلا الانقياد وفق منطقها، وقد كان أهل الولاية في المغرب ممن ساروا وفق منهج كتم الحقائق، نظرا لقوة رسوخهم المعرفي.

وقد بدأت تظهر ملامح الشخصية الصوفية لدى أهل المغرب ابتداء من القرن الخامس الهجري، إلَّا أنَّ نضجه كان خلال القرن السادس الهجري، حيث عرفت هذه الحقبة ظهور عدد كبير من أهل الولاية والتربية عبر مناطق متعددة من المغرب، كانت بينهم اتصالات ومراسلات وتزكيات، وكانت الرحلة للحج أو لطلب العلم من أسباب دخول التصوف لبلاد المغرب.

بالإضافة إلى دخول كتب الرقائق وفقه القلوب التي أضحت من مقررات المنظومة التعليمية لدى علماء المغرب، كما هو الشأن بالنسبة لعلي بن حرزهم الذي يذكر صاحب التشوف تدريسه كتاب الرعاية للمحاسبي، كما عرفت الرسالة القشيرية وكتاب قوت القلوب انتشاراً كذلك داخل الوسط المغربي.

ولما نضجت التجربة الصوفية المغربية تعاطى أصحابها للتأليف ووضعوا شروحات عليها، ونظموا قصائد في بيان طريق القوم، وألفوا أراجيز وكتب في الطبقات، بما يماثل في مضمونها وشكلها المؤلفات المشرقية.

وبالنظر إلى المصادر التي أرّخت للمئات من رجالات التصوف بالمغرب منذ بدايةِ القرن الخامس الهجري وما بعده، نجدها تنحو وتؤكد أخلاقية وفاعلية التصوف الذي اتخذه أهل الولاية بالمغرب.

إشكالية البحث:

يطرحُ البحث إشكاليات وفرضيات عدَّة منها: معرفة معنى التصوف ونشأته، وما هي أهم المبادئ التي قام عليها التصوف؟!. ولماذا شهد الغرب الإسلامي انتشار ظاهرة التصوف انتشاراً واسعاً؟! ومن هم أشهر رجال التصوف، وماهي التعاليم التي أتوا بها، وما هي المؤلفات التي صنفوها في سبيل دفع حركة التصوف قدماً إلى الأمام؟، وما هو

الآثار التي ترتبت على انتشار التصوف في بلاد المغرب سواء السياسية أم الاجتماعية أم الاقتصادية؟!.

أهمية البحث:

يُعـدُّ البحـث ذا أهميـة بالنسـبة للبـاحثين فـي حقـل الدراسـات الدينيـة والاجتماعيـة والفكريـة، ومـن جهـة أخـرى فـإنَّ المـادَّة التـي احتـوت عليهـا مضـامين كتـب التصـوف لهـا أهميتهـا فـي تـاريخ الغـرب الإسـلامي، إذ أنَّ كتابـات المتصـوفة لهـا أهميـة فـي إلقـاء الضـوء علـى مجتمـع الغـرب الإسـلامي مـن نـواحٍ عـدة ولا سـيما الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

أهداف الدراسة:

توضح الدراسة مجموعة أهداف أهمها:

تسليط الضوء على مفهوم التصوف، ومبادئه، ومن ثمَّ تقديم نماذج لأشهر العلماء المتصوفة في الغرب الإسلامي، وذكر أهم مؤلفاتهم في هذه المجال، والمبادئ التي قامت عليها دعواتهم الصوفية.

الإطار النظري للبحث:

تتمثل الحدود المكانية للبحث بالحديث عن أثر التصوف في بلاد الغرب الإسلامي، وتنحصر حدوده الزمانية من خلال الحديث عن انتشار التصوف في الغرب الإسلامي، وانتقاء نماذج لأشهر الرجال المتصوفة خلال القرنين(5-6هـ / 11-12م).

منهج البحث :

سيُتَّبع في البحث المنهج التاريخي، بتناول مفهوم ومبادئ التصوف، وأثره في بلاد الغرب الإسلامي وهو موضوع الدراسة.

وسيُعتمد على المنهج المُقارن بالحديث عن أهم الرجال المتصوفة في بلاد الغرب الإسلامي، من خلال انتقاء نماذج لأشهر الرجال المتصوفة، ومقارنة ما أتى به كل عالم منهم بمبادئ وأفكار أسهمت في تطور حركة التصوف الإسلامي في الغرب الإسلامي.

المتن:

أولاً- تعريف التصوف ونشأته:

يحاول الصوفيون أن ينتسبوا إلى الصفاء فترددوا كثيراً في تعريفاتهم للتصوف ومشتقات مادته مثل صافي، وصوفي والتصفية، وصفا، وصفي والصفوة ....إلخ.

وقد لاحظ نيكلسون في مجموعة كبيرة من تعريفات التصوف اختارها من نصوص القرنين الثالث والرابع الهجريين أن كل انتساب إلى الصوفية يقابله اثنتا عشر تعريفاً تعتمد على الصفاء.

ويعلل القشيري لذلك بأنَّ الصفاء محمود بكل لسان، أما صاحب اللمع فيقول: " أن العبد إذا صفا من كدر البشرية يقال له قد صوفي فهو صوفي"، ولكن هذا الانشقاق مرفوض إذ هو على حد قول القيشري نفسه بعيد في مقتضى اللغة[1].

[1] أيبيسوني(إبراهيم): نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، مصر، د ط، د ت، ص 10.

وأما الآراء المرجحة حول هذه اللفظة فهناك أربعة احتمالات وهي أما أن يكون الصوفي منسوباً إلى صوفة والثاني يكون منسوباً إلى الصوف والثالث يكون مشتقاً من الصفاء والرابع يكون منسوباً إلى كلمة سوفيا اليونانية والتي تعني الحكمة[1].

وأن يكون الصوفي منسوباً إلى صوفة التي قيل أن الصوفي ينسب إليها فهو اسم رجل كان انفرد بخدمة الله عند بيته الحرام واسمه الغوث بن مر فانتسب الصوفية إليه لمشابهة إياه في الانقطاع إلى الله.

ولتوضيح ذلك يقول الجوزي في ذلك: " أن قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى الله وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية وهؤلاء المعروفون بالصوفية ولد الغوث بن مر بن اخي تميم بن مر ويذكر أنه كانت الإجازة بالحج للناس من عرفة إلى الغوث ثمَّ إلى ولده"[2].

وكانت العرب تقول: " إذا حانت الإجازة: أجز صوفة"، ويقول هشام بن محمد السائب الكلبي: " إنَّما سمي الغوث بن مرة صوفة لأنه كان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل له صوفة".

وكانت إجازة الحج من عرفة إلى منى ومن مكة لصوفة فلم نزل بيد صوفة إلى أن انتقلت إلى عدوان ومن عدوان أخذنها قريش، وبالنسبة إلى التصوف في الجاهلية

---

[1] أبو الريان(محمد علي): الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1994م، ص 7.

[2] زكي(مبارك): التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، دار جيل، بيروت، د ط، ج 1، ص 40.

فكان موجود حيث كان هناك: حنظلة بن ابي عفراء الذي بنى دير حنظلة بالقرب من شاطئ الفرات وكان قد نسك في الجاهلية وتنصر وبنى هذه الدير فعرف به[1].

وكان هنالك مجاهد في قوله تعالى (يا أخت هارون) وقال كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل حضر جنازته أربعين ألفاً ممن أسمه هارون وسواه والصلاح هنا هو النسك وأخت هارون هي مريم وكانت بأرض موصولة بالبلاد العربية، وكان في الجاهلية لفظة هي الديان وكان في الجاهلية يزيد وعبد المسيح ابنا الديان، والديان المتنسك في الدين ومثله الرباني وهي كلمة قديمة عرفتها العربية والسريانية وظلت من ألفاظ التمجيد والربانيون هم فوق الاحبار درجة وقد فسر الرهبان في القرآن بالزهاد .

وروي عن النبي قوله: (لا صام من صام الأبد)، وصيام الأبد هو نوع من التصوف كان موجوداً قبل النبي ولولا ذلك لما نهى عنه[2].

وبالنسبة إلى الصوف أقرب النسب إلى الاشتقاق اللغوي ولأن ثمة علاقة بين ارتداء الصوف والتصوف وبين تخفيف من متع الحياة والميل إلى الزهادة والاتجاه إلى التنسك[3].

ومن المعقول أن هذه العلاقة قد عرفت بعد ظهور الإسلام حين أقترن بعد ظهور الإسلام بمظهر المتصوفين الزاهدين[4].

وقال بشر بن الحارث: " الصوفي من صفا قلبه لله"، وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته بارتفاع همم إليه وإقبالهم

---

[1] حميش (سالم): التشكلات الأيديولوجية في الإسلام، الاجتهاد والتاريخ، الرباط 1981، ص 9.

[2] زكي: التصوف في الأدب والأخلاق، ج1، ص 40، 41.

[3] أبيسوني: نشأة التصوف الإسلامي، ص 10 .

[4] أبيسوني: نشأة التصوف الإسلامي، ص 10.

بقلوبهم عليه، وقيل: إنهم سموا بالصوفية لقرب اوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول

وأمَّا من نسبهم إلى الصفة والصوف فأنَّه عبر عن ظاهر احولهم وذلك أنهم قوم قد تركوا الدنيا فخرجوا عن الأوطان وهجروا الأحزان وساحوا في البلاد واعروا الأجساد لم يأخذوا من الدنيا إلَّا ما لا يجوز تركه من ستر العورة وسد الجوعة، وحيث أنهم لسفرهم عن أوطانهم سموا غرباء ولكثرة أسفارهم سموا شكفتية، والشكفت بلغتهم الغار والكهف وأهل الشام سموهم جوعية لأنهم يناولون من الطعام قدر ما يقيم الصلب للضرورة كما قال النبي (بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه).

ثمَّ أن هذه كلها أحوال أهل الصفا الذين كانوا على عهد الرسول فانهم كانوا غرباء فقراء ومهاجرين اخرجوا من ديارهم وأنوالهم، وقال الحسن البصري: " كان عيسى عليه السام يلبس الشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى"، ويقول أبو موسى الأشعري: " كان النبي يلبس الصوف ويركب الحمار"، وقال الحسن البصري: " لقد أدركت سبعين بدرياً ما كان لباسهم الا صوف[1]، فلما كانت هذه الطائفة بلبسها وصفتها تشبه أهل الصفا سمو صوفية ومن نسبهم إلى الصوفية والصف الأول فأنه عبر عن أسرارهم وبواطنهم وذلك أن من ترك الدنيا وزهد فيها واعرض عنها صفى الله سره ونور قلبه".

وقال النبي: (إذا دخل النور من القلب انشرح وانفسح قيل وما علاقة ذلك يا رسول الله قال: التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت فيل نزوله)، وعندما سأل الرسول الحارث عن إيمانه قال الحارث: " عزفت بنفسي عن الدنيا فظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً انظر إلى أهل الجنة

[1] الكلاباذي(محمد بت إسحاق البخاري): كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994م، ص20.

يتزاودون وإلى أهل النار يتعادون"، وعند ذلك أخبره الرسول ان قلبه منور وسميت هذه الطائفة نورية لهذه الأوصاف[1].

وقد لاحظ(walter t.stacc) في كتابه (the teachings of the mystics) الذي اختار به نماذج من الصوفية والتصوف من جميع أنحاء العالم ومن جميع الديانات والثقافات، وقد لاحظ ذلك فقال عند تقديمه للتصوف عند المسلمين: " أن القارئ لن يصعب عليه فهم مختاراتي من تصوف المسلمين ولست في حاجة إلى شروح أو مزيد من التعليقات، لأنَّ ما مرَّ بالقارئ يكفي لأن ينقله إلى جو مماثل"، والتعريفات التي تتحدث عن البداية غالباً ما تجعل ذلك تخطيطاً لطريق ذي غاية[2].

وقال معروف الكرخي (ت 200هـ): " التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق فمن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتصوف، الصوفي لا يكدره ويصفو فوق كل شيء".

ويقول سهل بن عبد الله التسري (ت 283هـ): " الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر".

ويقول أبو الحسين النوري (ت 295هـ): " الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا لا مالكين ولا مملوكين"، ويقول أيضاً:" التصوف كراهية الدنيا ومحبة المولى"، ومن هذه التعريفات يتبين أن البداية تيقظ فطري يوجه النفس الصادقة لأن تدخل في طريق خاص نحو هدف معين[3].

---

[1] الكلاباذي: كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، ص6، 7.

[2] أبيسوني: نشأة التصوف الإسلامي، ص 11.

[3] أبيسوني: نشأة التصوف الإسلامي، ص 18-19.

ثانياً– مبادئ التصوف:

إنَّ التصوف بوجه عام فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يتخذها الأنسان بوجه عام لتحقيق كماله الأخلاقي وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية، على أن كلمة تصوف وان كانت من الكلمات الشَّائعة إلا أنها في نفس الوقت من الكلمات الغامضة التي تتعد مفهوماتها والسبب في ذلك أن التصوف هو خط مشترك بين ديانات وفلسفات وحضارات متباينة في عصور مختلفة[1].

ومن الطبيعي أن يعبر كل صوفي عن تجربته الخاصة في أطار ما يسود مجتمعه من عقائد وأفكار والتجربة الصوفية واحدة في جوهرها لكن الاختلاف بين صوفي وأخر راجع أساساً إلى تغير التجربة ذاتها المتأثرة بالحضارة التي ينتمي إليها كل واحد منهما[2]، والتصوف نوعان ديني وفلسفي فالديني ظاهرة مشتركة بين الأديان جميعاً سواء في ذلك الأديان المسيحية (اليهودي، والمسيحي، والإسلامي) أم الأديان غير المسيحية أو الشرقية القديمة (الكونفوشية، والبراهمانية، والأورفية، والفيثاغورية، والطاوية، والبوذية).

والتصوف الفلسفي قديم عرف في الشرق وفي التراث الفلسفي اليوناني (هيراقليطس، وأفلاطون، وبارمينيدس) وفي أوربة في عصريها الوسيط (أوف كليرفو، وإيكهارت وتولر)، وكان التصوف الديني يمتزج احياناً بالفلسفة كما هو الحال عند بعض صوفية الإسلام والمسيحية[3]، ولقد حاول بعض الباحثين أن يحددوا الخصائص العامة

---

[1] بالنثيا (آنخل): تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مدريد 1945، ص 336.

[2] التفتازي(أبو الوفا الغنمي): مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1983م، ص3.

[3] الموسوعة العربية (التصوف)، ج6، ص 513، 514.

المشتركة للتصوف ومنهم عالم النفس الأمريكي وليم جيمس فذكر أنها تتألف من أربعة خصائص هي:

- أحوال إدراكية.
- أحوال لا يمكن وصفها لأنها وجدانية يصعب التعبير عنها لفظاً.
- سريعة الزوال لا تستمر مع الصوفي لمدة طويلة.
- أحوال سالبة حتى أن الانسان لا يحدها بإرادته[1].

ويبدوا أنَّ هنالك خمس خصائص للتصوف وهي:

- **الترقي الأخلاقي:**

حيث أن كل متصوف له قيم أخلاقية معينة ويهدف إلى تصفية النفس من أجل الوصول إلى تحقيق هذه القيم .

- **الفناء في الحقيقة المطلقة:**

وهو أمر يميز التصوف بمعناه الاصطلاحي الدقيق والمقصود هو أن يصل الصوفي إلى حالة نفسية معينة لا يشعر بعدها بذاته او بنيانه .

- **العرفان الذوقي المباشر:**

وهو معيار دقيق يميز التصوف عن غيره من الفلسفات حيث ان الأنسان يعتمد على اصطناع منهج العقل في فلسفته وإذا كان يؤمن بأن وراء إدراكات الحس والاستدلال العقلي منهجاً أخر للمعرفة فهو صوفي.

[1] العدنوني(محمد): التصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، 2005م، ص 46.

- الطمأنينة أو السعادة:

وهي خاصة عامة لكل أنواع التصوف ذلك أن التصوف يهدف إلى قهر دواعي وشهوات البدن او ضبطها وهذا ما من شأنه ان يجعل الصوفي متحرراً من كل مخاوفه وشاعراً بالراحة النفسية وطمأنينة تحقق سعادته.

- الرمزية في التعبير:

ونعني بالرمزية هنا ان لعبارات الصوفية معنيان احدهما يستفاد من ظاهر الألفاظ والأخر بالتحليل والتعمق ولكل صوفي طريقة في التعبير عن حالاته فهي خبرة ذاتية[1].

وللتصوف الإسلامي أخلاقيات مستمدة من الإسلام إنه كما يصفه ابن القيم في مدارج السالكين: التصوف هو الخُلُق وهو النظرية الباطنية في الإسلام والسر الذي تضمنه القرآن الكريم إنه فكر وجداني فكر محبة وعشق، وهو مسعى أنساني يتوخى تجاوز حال البشر الفانين بالانطلاق من الذات نشداناً لبقاء يمحق الفناء وبه يعود الجزئي إلى الكلي وتمحى الفردية الفانية في نعيم الغبطة العظمى.

ولقد بدأ التصوف تخلياً فتحلياً بدأ تحنثاً وزهداً ونسكاً قيل أن يطلق لقب الصوفي على أي إنسان ذلك أن المسلمين بعد وفاة الرسول لم يتسم أفاضلهم بتسمية علم سوى رسول الله إذ لا فضيلة فقهية فقيل لهم الصحابة وتبعهم التابعون فتابعوهم فقيل لمن لهم عناية بأمر الدين الزهاد والعباد[2].

[1] التفتازي: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 5- 7.

[2] التفتازي: مدخل إلى التصوف الإسلامي، ص 7.

ثالثاً– التصوف في المغرب:

لا شك أن كل مظهر من مظاهر الحركة الفكرية في أي بلد اسلامي طبعت بالطابع الديني عبر التاريخ وقد بدأ هذا الطابع يتمكن شيئاً فشيئا من أطار الإسلاميات ليأخذ أتجاهاً علمياً في الجملة.

فالتصوف المغربي جزء من التصوف الإسلامي العربي لما خلقه من النظريات الصوفية المغربية ومن الاثار العميقة في الأفكار الصوفية المشرقية فالمغرب العربي خلال العصور الأولى من حروب التحرير العربية ظل بعيداً عن الانحرافات العقائدية والبدع التي شوهت الدين الإسلامي فكانت العبادة وتلاوة القرآن الكريم وسرد الأحاديث النبوية الشريفة شغلهم الشاغل ألا أنه حصل تداخل لبعض العناصر بالنظريات والأفكار الشاذة التي كانت تعصف بالشرق لأن أهل المشرق كانوا سباقين في المناظرات وذلك لوجود التيارات والمذاهب البدعية.

ولقد تخلص التصوف في المغرب على أنه الزهد ، فالسمة الأساسية المميزة لموقفهم الفكري (سواء أكانوا منتمين للطريق الصوفي أم محبين فقط)ربطهم الدائم بين التصوف والزهد عدا أقلية رأت وجود فرق بين المفهومين مؤداه أن التصوف اعلى من الزهد وأن الزهد جزء من التصوف ونجد صدى لهذا الاتجاه لدى علال الفاسي الذي تحدث عن التصوف من ناحية كونه الزهد واستند في ذلك إلى حياة الرسول واعتكافه بغار حراء وكذلك الخلفاء الراشدون والصحابة من حيث كون حياتهم حياة الزهد الذين جاهدوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله وكذلك حين حاول التهامي الوزاني التعبير عن تجربة الصوفية فوصفها بأنها حياة الرهبانية والانقطاع للعبادة والتفرغ لله عز وجل مما يدل على عمومية هذا الاتجاه في المجتمع المغربي[1].

[1] مجلة كلية العلوم الإسلامية: الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع، العدد (1/14)، المجلد السابع، 2014، ص2.

وأظهرت الدراسات الميدانية أن نظرة المجتمع هذه للتصوف بهذا المفهوم ترجع الى التأثر بكتابات الغزالي ومنهجه القائم على الخلوة والزهد والانقطاع للعبادة مما اضفى على التصوف المغربي الطابع الفردي الذي هو اشبه بشكل التصوف في مصر في عصورها الأولى اذ كان يميل الى كونه ظاهرة نسبية فردية اكثر من كونه ظاهرة اجتماعية[1].

وقد اتَّضح من البحث أنه يمكن النظر الى التصوف من منطلقين يتمثل الأول في الجانب الأخلاقي السلوكي والثاني في الجانب المعرفي الكشفي والجانب الاول هو الاكثر وضوحاً ولقد أطلق عليه البعض الجانب الكسبي القائم على الاستعداد الفطري لتلقي الاخلاق والسعي نحو الكمال باستخدام الإرادة وتعريف التصوف من خلال الوسائل المستخدمة في تحقيه وليس من خلال الغايات وهذا الجانب السلوكي من التصوف يطلق الكثير عليه الكثيرون مصطلح التصوف السني وهو في الوقت نفسه يطلق عليه اسم الطريقة أي المنهج الذي يتبع المريد لتحقيق الكمال الذي هو ثمرة الجانب الأخلاقي.

أما الجانب الاخر فهو المعرفي ويمثل الجانب الأعلى في التصوف وهو ثمرة الجانب الأول وهذا الجانب يغلب عليه الموهبة أو العطاء الإلهي وأطلق عليه البعض التصوف الفلسفي[2].

وتنسب كل الأبحاث بداية تشكل التصوف الممزوج بالفلسفة الى أفكار عبد الله بن مسرة القرطبي (269-319هـ/883-931م)، والتي ظلت حية في تلامذته طوال

---

[1] مجلة كلية العلوم الإسلامية: الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع، العدد (1/14)، ص 2 .

[2] جاد الله(منال عبد المنعم): التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1997م، ص 142، 143 .

القرن الرابع الهجري والذي نشروها بدورهم خلال القرون اللاحقة رغم المضايقات التي تعرضت لها هذه المدرسة وأتباعها[1].

رابعاً- أشهر رجال التصوف في المغرب:

1- ابن مسرة (269-319هـ/883-931):

محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الله سمع من أبيه ومن محمد بن وضاح والخشني خرج الى المشرق في اواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة فخرج فاراً وتردد بالمشرق مدة فأشتغل بملاقة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة فاختلفوا اليه وسمعوا منه[2].

وكان قد نزل بمكة وسمع أبا سعيد بن العربي وكان ابو سعيد يظهر انه يروي الحديث على مذهب أهل السنة ولكنه كان يتكلم في الباطنية ويعلم دقائق اسرار الصوفية وآرائهم الاشراقية ثم عاد الى الأندلس والى حياة الاعتكاف من جديد[3].

وبما أنَّ أبوه كان معتزلياً من قرطبة وكان الاعتزال يثير بحث كثير من الالهيات ويتسلح اصحابه بالفلسفة اليونانية للدفاع عن الاسلام ضد النصرانية واليهودية كما رأينا في المشرق فأورث كل ذلك الى ابنه ورأى أباه يسر الاعتزال ومال اليه فأسر هو مذهبه أيضا ولهذا اعتزل ابن مسرة الناس أيضا قبل ان يبلغ الثلاثين والتجأ الى جبل في قرطبة يتحنث فيه وجبال الأندلس عادة خضراء تبهج النفس وانضم اليه بعض اتباعه

---

[1] عبيد(بوداود): ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (ق13-15م) دراسة في التاريخ السوسيو- ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، د .ت، ص 48.

[2] جودة (ناجي حسين): التصوف عند فلاسفة المغرب ابن خلدون أنموذجاً، دار الهادي، بيروت ط1، 2006م، ص96.

[3] عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط، ص48.

وساعدته عزلته والمناظر الطبيعية على سعة الخيال وعمق التفكير ومع ذلك لم يستطع هو واتباعه أن يحافظوا على السرية محافظة تامة واتهم بالإلحاد عبد الرحمن الثالث الذي اشتهر بالعدل والتسامح الديني، وكثُرَ تلاميذه وأظهر التقية فكان ورعاً تقياً وهو يبث التعاليم العميقة لاخص تلامذته ومريديه[1].

والحقيقة اننا لم نعرف له آثاراً نستدل منها على آرائه ومذهبه ولكن مستشرق إسبانياً عثر على بعض آرائه وقال: " إنَّ كثيراً من تعاليمه تشبه تعاليم أمبيدوقليس وهو فيلسوف يوناني مشهور عده المسلمون أو الحكماء السبعة اليونانيين ونسبت أليه كرامات كما تنسب الى الصوفية"

ولم يقتصر أثره على مسلمي الأندلس بل أثر أيضاً في اليهود والنصارى وهنا نتساءل: هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف فيكون تصوف الغرب من تصوف الشرق أو أن ميوله الطبيعية ومزاجه وتعاليم النصارى الإسبانيين والفلاسفة اليونانيين أنتجت ابن مسرة هذا فيكون تصوف الغرب الإسلامي مستقلا عن التصوف الشرقي....؟[2].

وبالنسبة الى تصوف ابن مسرة فذكر ابن الفرضي أن ابن مسرة كان يمارس التأويل الرمزي للقرآن، وذكر الحميدي في جذوة المقتبس ان له " تحقيق في غوامض إشارات الصوفية"، وقد ورد في دائرة المعارف الإسلامية أن ابن مسرة أول تأويلاً رمزياً كل عبارات القرآن التي إذا أخذت على حرفيتها كانت مناقضة لتعاليم ابن مسرة، ولقد تكلم ان مسرة على مذهب الصوفية في تصحيح الاعمال ومحاسبة النفس على حقيقة

[1] الحسين(قصي): موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، دار البحار، بيروت، ط1، 2005م، ص261.

[2] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص261.

الصدق متأثراً بآراء اثنين من كبار الصوفية وهما ذو النون المصري وأبو يعقوب النهر جوري.

ويقول مؤلف جذوة المقتبس ويؤيده فيها الضبي في بغية الملتمس" أن ابن مسرة كان على طريقة من الزهد والعبادة بسق فيها".

لقد اعتزل ابن مسرة ومعه تلاميذه في جبل العروس بقرطبة مؤسسين ما يشبه الرباط الصوفي وكان ابن مسرة يملك هذا المعتزل[1]، ويصف هنري كوربان هذه المدرسة التي أسسها ابن مسرة بأنها كانت أول مجتمع صوفي قام في الأندلس.

ويذكر احسان عباس قائمة طويلة تتضمن أسماء (14) تلميذاً من تلاميذ ابن مسرة منهم: أيوب بن سليمان الطليطلي (ت 343هـ) والياس بن يوسف الطليطلي (ت 321هـ) ورشيد بن فتح الدجاج (ت 386هـ) وعبد العزيز حكم الأموي (ت 387هـ).

ولقد تناول الباحثون بالدرس والتحليل تصوف ابن مسرة في حدود المادة المتوفرة واستخلصوا نتائجها حيث تقول د. فضيلة عباس مطلك متحدثة عن آراء ابن مسرة الصوفية في الفصل الذي كتبته عنه في رسالتها للدكتوراه " انَّ عملية الاتحاد التي يقول بها وهي أتحاد العقل الفعال بالعقل المنفعل هذه غاية الأنسان وهو الحصول على السعادة القصوى بهذا الاتحاد وهذا سبيل المعرفة الصوفية ويجيء هذا – حسب رأيه– من محاسبة الضمير محاسبة يومية وتصفية النفس وتطهيرها وإخلاص النية ونقائها من خلال ممارسة الأعمال الخيرة للارتقاء نحو الكمال الذي كان يعتقد ان الانسان قادر أن يصل أليه وحده عبر المقامات الصوفية .... من هنا يمكن أن نفهم أن هذه التعاليم دفعته الى أن يؤول القرآن تأويلاً رزياً ان هذا الطريق الذي سلكه ابن مسرة حسب اعتقاده وكما ثبت من أقواله يوصله إلى رؤية الله وهذه الغاية التي يطلبها"

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص96

وبالنسبة إلى دور ابن مسرة الصوفي فأن فلسفته الجديد فيها هو ان ابن مسرة أسس التنظيم الجماعي للمجموعات الصغيرة التي نظمها في صومعته وفق نظام تربوي سارت عليه المدارس والحلقات الصوفية تحت أدارة المعلمين استكملت فيهم الرياضات الروحية وحازوا على معرفة واسعة في شتى العلوم[1].

وبالنسبة إلى مؤلفات ابن مسرة لم تصل الينا مؤلفات ابن مسرة مما حال دون معرفة آرائه معرفة مباشرة وعلى كل حال فأن المصادر تذكر ان الرجل كان لا يحبذ إشاعة مؤلفاته بين الناس وكان كثير التدقيق بها وهي طريقة عرفت عند المتصوفة الذين كانوا يفضلون الأخذ عن الشيخ والسوك الزهدي العملي على التأليف.

ويقول ابن الآبار في كلامه عن أحد تلاميذ ابن مسرة واسمه حي بن عبد الملك وهو من أهل قرطبة وقد صحب محمد بم مسرة الجبلي قديماً وكان قريب الجوار منه يسكن معه الأيام الكثيرة في متعبده في الجبل وينصرف ثم يعود ولما وضع ابن مسرة كتاب التبصرة ولم يكن يخرج كتاباً حتى يتعقبه حولاً كاملاً اختال حي فيه حتى خرج أليه دون أذنه واستنسخه وأتى بالنسخة غلى ابن مسرة وقال له هل تعرف الكتاب فقال له: لا نفعك الله به ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك الى الوجود.

ومن المؤسف أن يكون مؤلفات ابن مسرة محصورة في كتابين فقط على وجه التأكيد وهما كتاب التبصرة الذي يحتوي بلا شك مفتاح مذهبه الباطني وكتاب الحروف وهو يبحث في ذلك الجبر الصوفي انتقلت هذه الكتب من يد الى أخرى وأثارت حفيظة الفقهاء الا انها سلمت من معارضتهم وتسربت الى المشرق حيث تصدى لاثنان من المتصوفون المحافظين لنقضها[2].

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 98، 99.

[2] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 100.

وإذا وجدت مدرسة ابن مسرة بعض التسامح في شخص الحكم المستنصر مما سمح لأفكارها بالانتشار إلا أن الأمور أخذت تتغير في فترة المنصور الذي قرب الفقهاء إليه الامر الذي ضيق الخناق على تلامذة ابن مسرة ودفع بعضهم غلى مغادرة البلد مثل عبد الرحمن المهندس (إقليدس الأندلس) بينما كان السجن مصير البعض مثل صاعد بن فتحون بن مكرم الرقسطي المعروف بالحمار[1].

وعلى الرغم من أحراق كتب ابن مسرة والتضيق على مريديه إلَّا أن أفكار ابن مسرة ظلت حية في نفوس تلامذته وتداولها الواحد بعد الاخر ولعل ابز ممثليها من بعده إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي أدخل على تعاليم شيخه بعض التعديلات من أهمها "أن شيخ الجماعة ينبغي أن يعتبر أماماً أي رئيساً سياسياً دينياً لها ودعا إلى إحاطته بالإجلال والتوفير الكاملين وذهب إلى أن الملكية من كل صنف غير شرعية وقال بنكاح المتعة وأن العالم لا يفنى أبداً بل هكذا يكون الأمر بلا نهاية"[2].

وكان من تلامذة ابن مسرة الهاشمي وهو أبو بكر محمد أخذ عن ابن مسرة وأخذ عنه محيي الدين بن عربي وكان متقشفاً زاهداً وان لم نعرف له كتياً وقد عاصره صوفي كبير أخر وهو أبو عبد الله القرشي الهاشمي أيضاً نسبوا أليه أقوالاً صوفية كثيرة مثل "من لم يدخل في الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبهُ منها ومن لم يراع حقوق الأخرين بترك حقوقه حُرم بركة الصحبة "وقد مات سنة(559هـ) بعد أن رحل الى بيت القدس ودفن بها، وكان الناس يتبركون به وبضريحه والهاشمي هذا هو أحد أساتذة محيي الدين بن عربي[3].

---

[1] عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص50،49.

[2] عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص50.

[3] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي ، ص261.

وهكذا غدت لآراء ابن مسرة التأثير الكبير في الفكر الصوفي وهذا التأثير يظهر في التأثير البين الذي قامت به مدرسة الميرية – مدرسة ابن مسرة – بعد موت إسماعيل الرعيني في مطلع القرن السادس الهجري وفي أوج سيطرة المرابطين غدت الميرية عاصمة الفكر الصوفي وقد سن أبو العباس ابن العارف أحد الصوفيين الأندلسيين طريقة جديدة تستند الى الحكمة الإلهية عند ابن مسرة وقام ثالث تلاميذ بنشرها وهم أبو بكر الملور كيني في غرناطة وابن برجان الذي سيقترن اسمه باسم ابن العربي وابن القسي الذي نظم المستجيبين لمدرسة ابن مسرة في الغارب جنوب البرتغال[1].

2- محيي الدين بن عربي (560-638هـ-1165-1240م):

محمد بن علي بن محمد ابن العربي أبو بكر الخاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم ولد في مرسيليا سنة(560هـ)[2].

وهو من أئمة التصوف الكبار نشر تصوفه في الشرق والغرب تعلم القرآن والحديث في أشبيليه التي أقام بها نحو ثلاثين عاماً ثم رحل الى المشرق وأخذ الحديث عن ابن عساكر والجوزي وساح في بغداد والموصل وبلاد الروم واتسعت معارفه المتعددة ومع الأسف فأنه بعد ان رحل عن الأندلس لم يعد أليها ابداً وتوفي في دمشق.

وقد أُعطي بلاغة في القول وعمقاً في التفكير وسعة في الخيال وكلما نزل في بلد أتصل بمتصوفيها له الكثير من النثر والشعر وكان لا يعبأ بجاه ولا مال وكان كثير الشطح كثير التأويل وربما كانت له قصص كثيرة تبين منحاه في القول فقد قال:

يامن من يراني ولا أراه كم زاد أراهُ ولا يراني

---

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 101.

[2] الزركلي(خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م، ج6، ص281.

فأعترض عليه كيف لا يراه الله ؟ فقال:

يامن يراني مجرحاً لا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعما ولا يراني لائذاً.

ولكن الكثير من هذا القبيل ظاهره الألحاد باطنه الإسلام مع التأويل واشتهر شهرة واسعة وكانت شهرته تسبقه إلى أي مكان يحل فيه وهو متوكل على الله يتنقل من بلد إلى بلد فقيراً زاهداً فيعطف عليه بعض الأغنياء فيوزع ما يأخذه هنا وهناك حتى لقد أعطي مرة بيتاً يسكنه وجاءه سائل يسأله ويقول شيء لله فأعطاه البيت[1].

ولابن عربي أسلوبين ينطوي على مستويين للغة ذلك أن للرجل لغتين مختلفتين يخاطب بهما القارئ طوال الوقت ويمزج أحداهما[2]، بالأخرى إلى حد يختفي معه المعنى المقصود وهاتان اللغتان هما لغة الظاهر ولغة الباطن أو لسان الشريعة ولسان الحقيقة على حد تعبير الصوفية أنفسهم.

أما لغة الظاهر فهي لغة عامة الخلق وهي لغة الفقهاء والمتكلمين، أما لغة الباطن فهي لغة الرمز والاشارة التي يعبر بها الصوفية على المعاني والدقائق المستترة وراء ظاهرة الشرع والحقيقة أن للرمزية الصوفية أسبابها ومنها عجز اللغة الاعتيادية عن استيعاب معانيهم مما يضطرون إلى استعمال الرمز الصوفي ويفرق ابن عربي بين الزهد والتصوف فيسمي أولهما باسم (العلم الرسمي) والثاني باسم العلم (الذوقي)، والزهد علم عملي وفن لعبادة الله ومنهج في الحياة وأداة تأهل للتصوف، أما التصوف فمعرفة تجريبية وذوق لأحوال المعرفة التي تولدها في النفس المجاهدات الزهدية.

ومع ذلك فقد أكد الباحثون وجود صلة بين الزهد والتصوف ذلك ان الزهد الذي يدعوا اليه ابن عربي هو في جوهره زهد الخلة ومن هنا ارتباطه الوثيق بالتصوف ويقرر

[1] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص261، 262.

[2] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 124.

ابن عربي عجز العقل عن معرفة الله وهو رأي ثابت عند المتصوفة وعام بينهم ويقول المفكر الحاتم الطائي "فالعلم بالله عزيز عن إدراك العقل والنفس إلا من حيث انه موجود تعالى وتقدس وكل ما يتلفظ به في حق المخلوقات أو يتوهم في المركبات وغيرها فالله سبحانه وتعالى في نظر العقل السليم من حيث فكره وعصمته بخلاف ذلك لا يجوز عليه ذلك التوهم ولا يجري عليه ذلك اللفظ عقلاً"[1].

وعند الدراسة عن ابن العربي فلا بد إلى التطرق إلى قضية في تصوفه وهي قضية وحدة الوجود وهي من أهم القضايا وموضع الخلاف بين الباحثين، حيث أن ابن عربي من أكبر الناشرين بين الصوفية لفكرة وجدة الوجود أي أن الله والعالم شيء واحد يختلفان في الصورة فقط ولا يختلفان في الحقيقة.

وأن رؤية الأشياء مختلفة كمنزل وشجرة ليس إلَّا أمر قضت به الضرورة وليس إلا خداعاً من الحواس ومطاوعة للعقل الإنساني القاصر فهو يشبه ما يقول فيه الفلاسفة المحدثون من أن كل شيء أساسه الذرة وإنَّما تختلف الأشياء باختلاف النواة الذرية وكمية شحناتها الكهربائية وإلَّا فالحقيقة في الكل واحدة وربما عبر عن هذا الظاهر بقوله (سبحان من خلق الأشياء وهو عينها)، وهو شيء كما يقول لا يدرك بالعقل بل بالقلب وليس هناك خالق ومخلوق إلا في الظاهر وهناك خالق ومخلوق وحق وخلق وظاهر وباطن وأول وأخر وبالنسبة إلى إقامة البرهان المنطقي فأنه لا يفيد في هذا الباب إقامة البرهان المنطقي وإنَّما يدل عليه الشعور والرياضة والذوق ويرى أن كل المخلوقات من جماد ونبات وحيوان وإنسان خاضعة لهذا المعنى بمعنى أنها تسير بمقتضى طبيعتها وحقيقتها فالجماد يسكن أو يؤدي طبيعته الطبيعية بحكم القانون الإلهي وكذلك الإنسان والحيوان ولذلك لا يعول كثيراً على التفرقة بين يهودية ونصرانية ووثنية وإسلام ويقول في ذلك:

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 125.

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

والإنسان مسير لما خلق له وليس في باطن الأمر إلا الله وهذا لا يمنع ان الخلق يعيش الحق فهي كلها اعتبارات والشيء عادة يحن إلى جنسه، ولقد تأثر بتعاليم الافلاطونية الحديثة في قوله "بلحظات التجلي" فقد عرف عن أفلاطون زعيم هذا المذهب أن الحق في الواقع أسماء لمسمي واحد وهي الحقيقة الوجودية وضعت اصطلاحاً للفهم والتفاهم: ((وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)) والله خلق أدم على صورته، والقارئ لكتابه الفتوحات المكية يعجب من سعة خياله وقدرته على التعبير والتأويل[1].

ويبدو أنَّ مذهب وحدة الوجود لم يستكمل صياغته في الإسلام ولم يعرض العرض الكامل إلا في القرن السابع للهجرة وعلى أيدي ابن عربي الفيلسوف المتصوف الذي أتخذه أساساً لدراسته وبحثه وبنى عليه آراءه فأضحى مذهباً مكتمل المراحل متمسك الأجزاء عرض له في كثير من كتبه وبخاصة في كتابيه الكبيرين (الفتوحات المكية) و(فصوص الحكم) ونأخذ منها بعض الأمثلة:

" وهو – الله – من حيث الوجود عين الموجودات".

" الله تعالى لا يعرف إلا بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه فهو الأول والآخر والظاهر والباطن فهو عين ما ظهر وهو عين ما بطن".

" ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات".

" فالعالم صورته وهو روح العالم المدبر له فهو الأنسان الكبير".

" الأمر حق كله أو خلق كله فهو خلق بنسبة وهو حق بنسبة والعين واحدة فعين صورة ما تجلى عين صورة من قبل ذلك التجلي فهو المتجلي والمتجلى له".

[1] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص263.

ويقول ابن عربي في مسألة الوجود: " فلم يبق لنا أن نقول إلا ان الحق تعالى موجود بذاته لذاته مطلق الوجود غير مقيد بغيره ولا معلول عن شيء ولا علة لشيء بل هو جل وعلا خالق المعلولات والعلل والملك القدوس الذي لم يزل وان العالم موجود بالله تعالى لا بنفسه ولا لنفسه مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته فلا يصح وجود العالم البتة إلا بوجود الحق"[1].

وبالنسية إلى هذه الأفكار لم تبقى حبيسة أفرادها بل أصبح لها أتباع ومدارس معروفة ومنها المدرسة الأكبرية نسبة إلى محيي الدين بن عربي ويبدوا أن البيئة المغاربية كانت ترفض هذا النوع من التصوف الفلسفي بدليل أن معظم أولئك المتصوفة الفلاسفة لم يستقروا في بلاد المغرب الإسلامي تحت ضغط المعارضة أما من قبل الفقهاء أو السلاطين حيث ان ابن عربي استقر في بجاية وتلمسان غير أم مكانة ابن عربي في بلاد المغرب الإسلامي كانت عالية[2].

ويظهر ذلك من خلال ترديد كتبه في تراجم المتصوفة المغربة أي أنهم كانوا يُقبلون في دراستها وتدريسها وإن تضاربت الانباء بين مؤيد لها مدافع عنها وبين متحامل ضدها ناقد لمحتوياتها[3].

ومن الكتب المطبوعة له الفتوحات المكية وديوان يسمى ترجمان الأشواق وقد ألفه في مكة عندما عشق فتاة تسمى نظام وظاهر هذا الديوان حب هذه الفتاة وباطنه الله والفناء فيه وكتاب محاضرات الأبرار وكتاب فصوص الحكم ومجموع الرسائل الإلهية وله أيضا كتب في الادب والتاريخ وتفسير القرآن وكتاب في أسرار العلوم، وأياً ما كان قد

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 127، 128.

[2] عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص50، 51.

[3] عبيد: ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص51.

خلفه محيي الدين بن عربي تراثاً ظل يلعب بالأفكار والعقول إلى اليوم بين الشرق والغرب[1].

3- ابن سبعين (613-669هـ / 1216-1270م):

عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي قطب الدين أبو محمد من زهاد الفلاسفة ومن القائلين بوجدة الوجود[2].

وهو من أشهر المتصوفة وكان أديباً صوفياً متفلسفاً متزهداً متقشفاً وهو من خريجي مرية كمحيي الدين بن عربي وأبي العباس المرسي وكان تلامذته يعتقدون أنه ليس له نظير في العلم اللدني وكان مشهوراً بحبه الايثار وعطفه على الإنسانية كلها ومحبته لأعدائه وبيته كان بيت عز ومجد في بلاد المغرب وهو بيت علوي وقد زهد في رياسة أهل بيته وتركها لإخوته وقد قالوا: إنه ألف كتاباً اسمه "بدء العارف" وعمره خمسة عشر سنة ولثقافته الأدبية كان يؤدي ما عنده من المعاني أداءً حسناً.

ولقد اشتهرت أحبار ابن سبعين حتى وصلت إلى بابا روما وقد ذكروا أن الامبراطور فردريك الثاني النرماني ملك صقلية عرضت له بعض مسائل فلسفية عرضاً على الكثير من علماء المسيحين والمسلمين فلم يتصد للرد عليها رداً شافياً أعجب فردريك مثل ابن السبعين وكانت الأسئلة هي:

1- ما المقصود من تعلم باللّه وما مقدماته؟.

2- ما معنى المقولات ؟ وكيف تستخدم في العلم ؟ وما عددها؟.

3- ما الدليل على خلود النفس؟.

وأجابه ابن سبعين في رسالة لا تزال محفوظة إلى اليوم وهي تدل على مدى اطلاعه على ما ترجم من الفلسفة اليونانية وله شطحات ورموز على نحو طريقة ابن

---

[1] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص264-267 .

[2] الزركلي: الأعلام، ج3، ص 280.

عربي في نظرية وحدة الوجود، ولقد ذُكر عن ابن سبعين قوله: لقد حجر ابن أمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي ويشير بطرف خفي إلى أنه بلغ درجة النبوة وهي نزعة موجودة لدى الكثير من الصوفية[1].

وابن سبعين بوصفه صوفياً فأنه ينتمي إلى طريق صوفية شكلت ثقافته وآرائه في التصوف وهي الطريقة الشوذية، وكان ابن سبعين ومن عاصره من الفلاسفة يقولون بوحدة الوجود ولذا كان الهجوم قوياً عليهم من الفقهاء، وعلى الرغم من تصوفه إلا أنه نقد الصوفية عامتهم وخاصتهم ومذهب ابن سبعين في التصوف يعرف بالوحدة المطلقة والفكرة فيه بسيطة وهي أن الوجود واحد وهو وجود الله فقط أما سائر الموجودات فوجودها عين وجود الواحد ومن أهم أقواله في ذللك: " الله فقط قدر ان الوجود كله صورة واحدة محيطة بظاهره وبباطنه"، " الذي هو ولا شيء إلا هو ولا ماهية إلا ماهيته ولا انيته تجده وحده وتجد الوحدة غير زائدة علة ذاته"، " ليس إلا الايس فقط وهو هو"، " أن انية الله هي أول الآنيات وآخر الهويات وظاهر الكائنات وباطن الأبديات".

والوحدة المطلقة يؤكدها ابن سبعين ضد كل محاولة للتميز حتى عند الصوفية القائلين بالتوحيد فإنهم يميزون بين توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وهذه التميزات أوهام في أوهام، ومن مؤلفاته في التصوف:

- **رسالة العهد:**

وهي رسالة قصيرة يوجهها ابن سبعين إلى مريده الذي يأخذ عليه العهد.

- **الرسالة النورية أو كتاب النصيحة:**

وهي رسالة صنفها في رياضة الذكر وآدابها وقواعدها

[1] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص268.

- الرسالة الفقيرية:

وهي رسالة يبحث فيها ابن سبعين عن الفقر بسب رأي الفلاسفة والمتكلمين والصوفية[1].

- الرسالة الرضوانية:

وهي رسالة صنفها ابن سبعين لشرح أداب التصوف وبعض مقاماته كالتوبة ويشرح فيها معاني الرضوان والرحمة الى جانب وصايا ومؤلفات أخرى[2]، ولقد كان ابن سبعين من زهاد الفلاسفة ومن القائلين بوحدة الوجود وفي رأي ان كتبه ورسائله تحتاج إلى دراسة عميقة لمعرفة قيمته ومنحاه[3].

4- ابن عباد (ت 792هـ/ 1389م):

هو أبو عبد الله محمد بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عباد، من أشهر الصوفية في العصر المريني، طلب العلم صغيراً وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنسن، ثم تعلم العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفرعية ثم أخذ بعد ذلك في طريق الصوفية والمباحثة عن الأسرار الإلهية، ومن كلامه:

" الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس وفتح باب الأنس بالله تعالى والاستيحاش من الناس"، " من لازم الكون وبقي معه وقصر همته عليه ولم تنفتح له طريق الغيوب الملكوتية ولا خلص بسره إلى فضاء مشاهدة الوحدانية فهو مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته"[4].

---

[1] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 134- 136.

[2] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 134.

[3] الحسين: موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، ص268.

[4] الحريري(محمد عيسى): تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار العلم، الكويت، د ت، ص 357، 358.

خامساً– الأولياء والكرامات:

الولي بسكون اللام القُرب والدنُو[1]، ولعلَّ أن قاعدة وأساس طريقة التصوف والمعرفة جملة يقوم على الولاية وثباتها أن كلمة ولي والتي غالباً ما تترجم بكلمة heiliger (قديس) ومعناها في الحقيقة شخص له حرمة خاصة وهي بمعنى صديق، وهي عند الشيعة صفة يصفون بها الخليفة والامام علي أنه ولي الله بلا منازع، وهذه الكلمة تأتي من: تُولي دلالة على من يتولى الله أمره، ومن " تَولى" دلالة على من يتولى عبادة الله وطاعته[2].

ولقد ذكر القرآن كلمة ولي في عدة آيات منها:

﴿ الله ولي الذين أمنوا﴾ [3].

﴿ وهو يتولى الصالحين﴾ [4].

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين امنوا﴾ [5].

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [6].

ثمَّ تطور معنى الولي تبعاً لما حدث في الملة من المذاهب المختلفة وتبعاً لتطور التصوف نفسه[1]، فأصبح الولي عند المتكلمين هو من يكون آتياً بالاعتقاد

---

[1] الرازي(محمد بن أبي بكر): مختار الصحاح، دار الأيمان، بيروت، د ط، د. ت، ص 736.

[2] شيمل(أنا ماري): الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل باشا، منشورات الجمل، بغداد، 2006م، 229 .

[3] القرآن الكريم: سورة البقرة، الآية 257.

[4] القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 196.

[5] القرآن الكريم: سورة المائدة، الآية 55.

[6] القرآن الكريم: سورة يونس، الآية 62.

الصحيح المبني على الدليل ويكون أتياً بالاعمال الصالة على وفق ما أتت به الشريعة وان يكون هذا الايمان مبني على الاعتقاد والعمل ومقام التقوى هو أن يتقي العبد كل ما نهى الله عنه وان يكون اتياً بالاعمال الصالحة[2]، أما الصوفية فيقولون كما في الرسالة القشيرية إنَّ الولي له معنيان:

أولهما:

أنْ يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى رعايته على التوالي ويديم توفيقه إلى الطاعات.

ثانيهما:

أنْ يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير فيكون معناها من يتولى عبادة الله وطاعته فطاعته تجري على التوالي من غير أن يتخللها معصية، فيكون ولياً بمعنى توالي طاعاته لربه وولياً بمعنى توالي فضل ربه عليه وكلا المعنين يجب تحقيقه حتى يكون الوالي ولياً فيجب أن يتحقق دوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء.

فالولاية عندهم عبارة عن دوام الاشتغال بالله والتقرب اليه بطاعته وإذا كان العبد بهذه الحالة فلا يخاف من شيء ولا يحزن من شيء لان مقام الولاية والمعرفة منعه من

---

[1] ماسيون (مصطفى): التصوف، تر: إبراهيم خورشيد ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1984م، ص 84.

القشيري(عبد الكريم بن هوزان): الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، ط1، 1993م، ص35.

[2] ماسيون: التصوف، ص 84.

أن يخاف أو أن يحزن، فالولي عندهم هو الواصل إلى درجة العرفان عن الطريق الموصلة إلى تلك المرتبة في رأيهم وهو العارف ايضاً، والواصل إلى درجة العرفان تتكشف له الحجب ويشهد من علم الله ما لا يشهده سواه وتظهر على يده الكرامة وهي أمر خارق للعادة[1].

ويقول أكثر الصوفية: إن ظهور الكرامات جائز بل واقع وهي أمور ناقضة للعادة غير مقترنة بدعوى النبوة، وهي عون للولي على طاعته ومقوية ليقينه وحاصلة على حسن استقامته ودالة على صدق دعواه الولاية إن دعاها لحاجة وشهدت له بها الشريعة[2]، ويقول الصوفية إن الكرامة تغاير المعجزة من وجوه ثلاثة:

ولها:

إنَّ الأنبياء متعبدون بإظهار معجزاتهم للخلق والاحتجاج بها على من يدعونه إلى الله تعالى فمتى كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى والأولياء متعبدون بكتمان كراماتهم عند الخلق فإذا أظهروا شيئاً منها لاتخاذ الجاه فقد خالفوا الله تعالى وعصوه.

ثانيهما:

إنَّ الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركون لأن قلوبهم قاسية والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوات الرزق لأن النفس أمارة بالسوء مجبولة على الشك.

ثالثهما:

إنَّ الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم يكون أتم لمعانيهم وفضلهم والأولياء كلما زيدت كراماتهم يكون وجهم أكثر حذراً أن يكون ذلك من الاستدراج لهم وأن يكون سبباً لسقوط منزلتهم عند الله.

---

[1] القشيري: الرسالة القشيرية، ص 37.

[2] جودة: التصوف عند فلاسفة المغرب، ص 86- 88.

ويقول بعض العلماء من المتكلمين والصوفية إن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء والإخبار بمجيء زيد من الناس من سفره وعافيته من مرضه فأما جنس ما هو للأنباء كإحياء الموتى وحصول إنسان لا من أوين وتسبيح الحصى فلا يكون للأولياء[1].

أمَّا أهم الأولياء:

1- ابن العريف:

أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله الصهناجي المعروف بابن العريف، وأصله من طنجة وإنما سمي والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب حرس الليل كان متناهياً في الفضل والدين منقطعاً إلى الخير وكان العباد وأهل الزهد يألفونه ويقصدونه فيمدحون صحبته وسعي به إلى السلطان فأمر بأشخاصه إلى حضرة مراكش فوصلوها وتوفي بها ليلة الجمعة صدر الليل ودفن بها في يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة واحتفل السلطان بجنازته فندم السلطان على ما كان منه في جانبه

وظهرت له كرامات وضريحه مشهور بمدينة مراكش.

ولقد أخذ عنه محمد بن خير بن عمر الاشبيلي الحافظ وهو صاحب الفهرسة الشهيرة والمتوفي سنة(575هـ) المواعظ ووصايا وذاكرته في أشياء من طريق الصوفية وأفادني وله منثور رفيع ومنظوم بديع فمن مليح نظمه قوله:

مَازلتُ مُذ سكنُوا قلبي أَصُون لَهُم لَحظي وسمعي ونطقي إذ هُمُ أنَي

حَلوا الفُؤاد فما أندَى وَلَو وَطئوا صخراً لجاد بمَاء منه منبجس[2].

[1] جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، ص 146

[2] ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، ص 129-130.

2- ابن كريس الدكالي:

أبو ينور عبد الله ابن وكريس الكالي من مشنزاية من أشياخ أبي شعيب أيوب السارية كبير الشأن من أهل الزهد والخشوع، حيث حدث عنه أنه مات أخوه فتزوج امرأته فقدمت إليه الطعام يأكله فحدثته نفسه أنه من نصيب الأيتام الذين هم أولاد أخيه فأمسك وبات طاوياً، ومنه أنه قدم اليه رجل يشكو اليه ظلم عامل علي بن يوسف وتهديده له بالقتل والصلب فدعا له بأن يرده الله عنه وقبل أن يصل الرجل إلى بيته أصاب العامل وجع قضي عليه من حينه بالموت[1].

3- ابن ويحلان:

أبو محمد عبد الجليل ابن ويحلان، دكالي الأصل ومزل بأغمات وبها مات عام احد وأربعين وخمسمائة، كان كبير الشأن من أهل العلم والعمل، رحل إلى المشرق فلقي به شيخاً من الصوفية فأخذ عنه هذا الشأن شيخاً عن شيخ بالسند المتصل إلى أبي ذر الغفاري صاحب النبي عليه الصلاة والسلام.

ولقد درس الناس الفقه ثلاثين سنة محتسباً مع شدة فقره وفاقته فاستأجر داراً بعشرة دنانير في العام فاجتمعت عليه مائة دينار في عشرة أعوام فقيل لصاحبها من اين يؤدي لك عبد الجليل ما لك عليه فسمع بذلك فأغمه ذلك فرأى في منامه الله جل جلاله يقول له ما يغمك يا عبد الجليل فقال له انت أعلم يا رب فلما اصبح اندق بابه فإذا برجل من الظلام أعطاه مائة دينار فأوفى دينه، وكان إذا انصرف عنه حملة الفقه يقول

[1] الحسيني(عبد الله): التصوف وأهل التصوف في دكالة، ضمن كتاب رباطات وزوايا في المغرب، تنسيق أحمد الوارث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2007م، ص 238.

لأصحابه تعالوا نأخذ في نور العلم فيأخذ معهم في علوم الآخرة وأسرار التصوف، توفي ودفن في مدينة أغمات[1].

4- أبو عبد الله الصوفي:

ويقال: أبو محمد ولا أحقق كنيته وكان هذا الصوفي عطاراً أو خياطاً وكان عبداً صالحاً من كبار الأولياء.

5- الجزولي:

أبو محمد يرزجان ابن محمد الجزولي وقدم مراكش وكان عالماً عاملاً فاضلاً، رحل إلى المشرق وكان ضريرا وصحب الامام أبا بكر بن العربي وكان بصيرا بمذهب مالك بن أنس وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن ياسين فقيه قبيلة مصمودة.

مات أبو محمد بقريه وماسة من بلد رجراجة وكان أبو محمد مجاب الدعوة حيث أنه سمع برجل أضر بجيرانه فدعا الله تعالى عليه فحمل الرجل ميتاً، ويذكر الفقيه أبي عبد الله محمد بن ياسين قال: ما أتيت قط إلى أبي محمد إلَّا وأدَّبني بضرب من الأدب فتحفظت يوماً وأتيت إليه فسلمت عليه وقعدت فقال لي: استقبل بوجهك القبلة إذا قعدت.

6- ابن يابو:

أبو علي حسين بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن يابو من أهل أغمات وبها مات سنة أربعة وستمائة، قدم مراكش وكان عبداً صالحاً لقي الامام أبا بكر بن العربي وكان فقيهاً صوفياً[2].

---

[1] ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، ص 129-130.

[2] ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف، ص 286، 287،392.

خاتمة:

مما سبق يمكن التوصُّل إلى النتائج الآتية:

– لقد اختلف المتصوفون بقضية التصوف، وتطرق البعض إلى حقيقة وجود الله واثباتها وإنكارها.

– لعلَّ من أشهر أعلام المتصوفين العظام والفلاسفة الكبار كان ابن سبعين، وابن مسرة، و ابن عباد، والمتصوف العربي ابن عربي الذي شغلت أفكاره وكتبه المجالس لقرون عدَّة.

– تعدُّ كتب التصوف من أشهر المؤلفات في الحضارة العربية الإسلامية، وقد كَثُر التصنيف في هذا المجال، ولا تزال هذه المؤلفات موضوع اهتمام المتخصصين في التصوف، وحتى الفلسفة وهي إنْ دلت على شيء فهي تدل على أفكارهم وكتبهم وبالتالي على نتاج و خصب الحضارة العربية الإسلامية وقدرتها على العطاء والإنتاج وتقبلها لكل الأفكار والمعتقدات وصهرها في بوتقتها وإضافة الطابع العربي والإسلامي عليها.

– يعدُّ موضوع الأولياء والكرامات موضوعاً ذا أهمية بالنسبة للباحثين في تاريخ الغرب الإسلامي؛ وذلك لأهميته الدينية في حياة الناس وانتشاره الكبير في بلاد المغرب الإسلامي وتأثيره في مجريات أحداثه وأهميته من حيث الفصل بين النبوة والكرامة ودلائل ذلك سواء من القرآن الكريم أو الحقائق والحجج.

– اشتهرت بلاد الغرب الإسلامي بكثرة كرامة الأولياء فيها، فاشتهر العديد منهم، وكان لأفكارهم أثرٌ دينيٌّ واضح في الغرب الإسلامي، كما لعب هؤلاء دوراً مهماً في الحياة السياسية، وذلك من خلال لعب دور مهم عند الأمراء وأصحاب السلطة والجاه، فأثَّر ذلك على طبيعة المجتمع الذي عاشوا فيه، وانتشرت أفكارهم حتَّى بين العامة، فكان لذلك نتائج بعيدة المدى حتى في حياة العامة، والمجتمع، وأيضاً في تطور الأحداث التي شهدها المغرب العربي الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً- قائمة المصادر:

- **القرآن الكريم**

- **التفتنازي(أبو الوفا الغنمي):**

مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1983م.

- **الرازي(محمد بن أبي بكر بن عبد القدر):**

مختار الصحاح، دار الأيمان، بيروت، د ط، د. ت.

- **ابن الزيات(يوسف بن يحيى التادلي):**

التشوف إلى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1997م.

- **القشيري(عبد الكريم بن هوزان):**

الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، ط1، 1993م.

- **الكلاباذي(أبو بكر محمد بت إسحاق البخاري):**

كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م.

ثانياً- قائمة المراجع:

- **أبو الريان(محمد علي):**

الحركة الصوفية في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1994م.

- **أبيسوني(إبراهيم):**

نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، مصر، د. ت.

- **بالنثيا (آنخل):**

تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مدريد 1945م.

- **جاد الله(منال عبد المنعم):**

التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1997م.

- **جودة(ناجي حسين):**

التصوف عند فلاسفة المغرب ابن خلدون أنموذجاً، دار الهادي، بيروت، ط1، 2006م.

- **الحسين(قصي):**

موسوعة الحضارة العربية العصر الأندلسي، دار البحار، بيروت، ط1، 2005م.

- **الحسيني(عبد الله):**

التصوف وأهل التصوف في دكالة، ضمن كتاب رباطات وزوايا في المغرب، تنسيق أحمد الوارث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط 1، 2007م.

- **الحريري(محمد عيسى):**

تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، دار العلم، الكويت، د. ت.

- **حميش (سالم):**

التشكلات الأيديولوجية في الإسلام، الاجتهاد والتاريخ، الرباط 1981م.

- **الزركلي(خير الدين):**

الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

- **زكي(مبارك):**

التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، دار جيل، بيروت، د. ت.

- **شيمل(أنا ماري):**

الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد إسماعيل باشا، بغداد، 2006م.

- **عبيد(بوداود):**

ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين ق 13-15م- دراسة في التاريخ السوسيو – ثقافي، دار الغرب للنشر والتوزيع، د ت.

- **العدنوني(محمد):**

التصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، 2005م.

- **ماسيون(مصطفى):**

التصوف، تر: إبراهيم خورشيد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1984م.

الموسوعة العربية: التصوف.

ثالثاً- قائمة المجلات والدوريات:

- **مجلة كلية العلوم الإسلامية:**

الصوفيون والتصوف في المغرب العربي حتى القرن الرابع العدد (1/14)، المجلد السابع، 2014م.